2

صب الزيت على النار
الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية المتوقعة
في «الحرب على الإرهاب»

نموذجان للإرهاب

كان الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) ونائب الرئيس ديك تشيني واضحين كل الوضوح، حين كررا الإعلان بأن على أمريكا وأصدقائها «شن الحرب على الإرهاب»، و«مطاردة الإرهابيين» وتدميرهم. وفي خطاب حالة الاتحاد (كانون الثاني/ يناير 2002، دعا الرئيس بوش الدول كافة «لاستئصال شأفة الطفيليات الإرهابية التي تهدد هذه البلدان علاوة على بلدنا». وبعد تفجيرات الرياض (أيار/ مايو 2003)، نصح تشيني الحاضرين في لقاء عقد في واشنطن «بالاعتراف بحقيقة أن السبيل الوحيد للتعامل مع هذا التهديد الداهم هو تدميره في نهاية المطاف. إذ لا يمكن لمعاهدة حل هذه المشكلة، ولا اتفاقية سلام، ولا سياسة احتواء.. [فعلينا] أن نعثر على الإرهابيين[1]» الفكرة هي وجوب استئصال الشر (ماديا). وعلى حد تعبير بوش، فإن «مسؤوليتنا أمام التاريخ واضحة لا لبس فيها: الرد على هذه الهجمات وتخليص العالم من الشر[2]». وأضاف في مناسبة أخرى: «سيكون هذا صراعا هائلا ومهما بين الخير والشر. لكن الخير سينتصر ويسود[3]» ووجدت دراسة بحثية أجراها بيتر سينغر (نشرت عام 2004) أن بوش أشار إلى الشر في 319 خطابا مختلفا، واستخدم الكلمة عادة كاسم، وقوة في العالم، بدلا من أن تكون مجرد نعت يصف بعض الأفعال المعينة[4].

المقاربة التي تقودها الولايات المتحدة للتعامل مع الإرهاب تعتمد على افتراض أن الإرهابيين عبارة عن مجموعة متميزة من الأفراد الأشرار الذين يمكن عزلهم وإبادتهم. ودعمت المقاربة غالبا (مثلما هي الحال في إشارة بوش إلى الطفيليات) بلغة ازدرائية تحقيرية لابد أن تشعل ضوءا تحذيريا في ذهن أي دارس للفاشية[5] فمقاربة «تدمير الأشرار» اتخذت شكلا ملموسا ومتعينا على طاولة الرئيس بوش في المكتب البيضاوي (في البيت الأبيض)، حيث استحثته أحداث الحادي عشر من سبتمبر على الاحتفاظ بملف يضم قائمة باثنين وعشرين إرهابيا مطلوبا، «سجل نقاطه الشخصي في الحرب» على حد تعبير الصحفي بوب ودوارد الذي كشف فضيحة «ووترغيت[6]» فقد اعتاد أن يضع إشارة (×) على صور أولئك الذين «لم يقبض عليهم بعد[7]» يظهر الموقع الإلكتروني لوزارة الخارجية الأمريكية أسامة ابن لادن، «أخطر الإرهابيين المطلوبين»، مع وصف مفيد له: الوزن حوالي 72 كغ، نحيل الجسم، أسمر البشرة، أعسر، يمشي بمساعدة عكاز، يعتقد أنه في أفغانستان. وهنالك مكافأة قدرها 25 مليون دولار لمن يدلي بأي معلومات تؤدي إلى القبض عليه أو إدانته. ويضيف الموقع محذرا: «يجب الانتباه إلى أنه مسلح وخطر». في إسرائيل أيضا هنالك صالة لصور المارقين من الإرهابيين المطلوبين، والنموذج الذي يتبناه بوش ينسجم تماما مع ذلك الذي يتبعه المتشددون الإسرائيليون، من أمثال رئيس الوزراء (السابق) أرييل شارون، الذي يتعاطف معه المحافظون الجدد كثيراً.

فكرة أن بمقدورك عزل واستئصال شأفة «الأشرار» بشكل فعال ومؤثر، انتقدها بأسلوبه البليغ الروائي الروسي المنشق ألكسندر سولجنتسين خلال الحرب الباردة، بعد أن عانى ما عاناه من اضطهاد وقمع النظام السوفييتي الشيوعي الذي كان له مشروعه الخاص في عزل واستئصال الشر:

> لو أن الأمر بمثل هذه البساطة! لو كان ثمة أشرار في مكان ما يرتكبون أفعالهم الشريرة والغادرة في الخفاء، ولا يتطلب الأمر سوى فصلهم عنا وتدميرهم. لكن الخط الفاصل بين الخير والشر يخترق قلب كل إنسان[9].

وفي حين استقبل سولجنتسين بالهتاف والتهليل في الغرب عندما كانت الشيوعية هي العدو، فإن حكمته معرضة الآن لخطر النسيان. وبالرغم من أن نموذج إدارة بوش لمحاربة الإرهاب قد سيطر وساد وتحكم، إلا أن هناك نموذجا بديلا (وأكثر دقة) يضع التفكير الإرهابي على الطرف الأقصى لمتوالية متسلسلة. ووفقا لهذا النموذج البديل، لا يعتبر الإرهابيون جماعة متميزة أو معزولة أو محددة بشكل كلي، بل جماعة يمكن أن يتزايد (أو يتقلص) عدد أعضائها على الدوام ـ اعتمادا (بشكل حاسم) على طريقة التعامل مع تهديد الإرهاب. في هذه المقاربة، يتمثل المفتاح في إضعاف الدعم المقدم للإرهابيين والتعامل مع النسق الذي يعتنق عبره بعض المتعاطفين مع الأهداف أو المظالم الإرهابية مبدأ العنف أو يساعدون على تسهيل ممارسته.

من المفارقة أن بعض أنماط التفكير الليبرالي و«الصوابية السياسية» قد تغذي المعقولية (السطحية) للنموذج الذي يصور الإرهابيين كجماعة محددة ومتميزة المعالم. وعلى الأقل، بسبب الحاجة إلى محاولة حماية الحقوق الإنسانية للمسلمين في الغرب (التي تتعرض لخطر متزايد)، يجد العديد من الليبراليين أن من الضروري التأكيد مرارا على أن الإرهابيين عبارة عن أقلية ضئيلة ترفض آراءها بشدة غالبيةُ المسلمين. وفي حين أن طريقة الكلام هذه تعتبر دقيقة وبناءة من نواح عديدة فيما يتعلق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا أنها تنزع إلى تشتيت الانتباه عن مشاعر السخط والحنق المنتشرة على أوسع نطاق بين المسلمين على «الحرب على الإرهاب». وتشير استطلاعات الرأي إلى أن عددا كبيرا من المسلمين في بريطانيا مثلا يعتبرون الآن «الحرب على الإرهاب» حربا على الإسلام[10] ووجد استطلاع لآراء المسلمين في بريطانيا (أجري في آذار/ مارس 2004) أن 13% منهم يعتقدون أن «مزيدا من الهجمات التي قد تشنها ـ القاعدة ـ أو منظمات مشابهة على الولايات المتحدة ستكون مبررة[11]».

وحتى إذا ركزنا بؤرة الاهتمام على شبكة "القاعدة" ذاتها، لا يمكن تقليص حجم المشكلة وحصرها في بضعة أفراد. فانفراط عقد المنظمات الأكثر تراتبية، مثل «الدرب المضيء» في بيرو، ربما عتم على الصورة وشجع على التفاؤل المزيف. وفي المناظرة مع جون كيري (20/ 9/ 2004)، لاحظ بوش أن 75%من قادة ـ القاعدة ـ المعروفين قد اعتقلوا وأحضروا إلى العدالة[12]». لكن عدد أعضاء «القاعدة» قدر في أيار/ مايو 2003 بأكثر من ثمانية عشر ألفا ينتشرون في تسعين بلدا[13] ومن المستحيل قتلهم أو اعتقالهم جميعا، وحتى في هذه الحالة، فإن العملية ستكون غير دقيقة وسيحل محلهم آخرون كما هو متوقع. ووفقا لتقرير أعده المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية «إذا تم قتل الأتباع أو اعتقالهم، فإن موتهم المشهود دفاعا عن الإسلام» سيدفع غيرهم لأخذ مكانهم[14] وحالة سيد قطب، الذي يعتبر الأب المؤسس للأصولية الإسلامية، تظهر آلية عمل ذلك: فقد كان كاتبا مغمورا نسبيا قبل أن تحكم عليه السلطات المصرية بالإعدام[15]. أما الاثنية، كما يحاجج عالم الانثروبولوجيا البريطاني ديفيد تورتون بأسلوبه البليغ، فربما تكون نتيجة للصراع مثلما هي سبب له. وهذا يصدق على الهوية الاثنية المتطرفة لـ«الجهاديين».

إذا تعذر القضاء على «القاعدة» (ماديا)، فإن من المستحيل القضاء على المقاومة العراقية (التي تضع إدارة بوش أفرادها ضمن فئة «الإرهابيين» غالبا). إذ بلغ عدد مقاتلي المقاومة العراقية الذين قتلوا أو اعتقلوا خلال الفترة الممتدة بين أيار/ مايو 2003 وآب/ أغسطس 2004 حوالي 24 ألف شخص، وذلك وفقا لتقديرات معهد بروكينز (الذي يتخذ من واشنطن مقرا له)[16] لكن عدد مقاتلي المقاومة العراقية قفز فعلا من 5 آلاف في تشرين الثاني/ نوفمبر 2003 إلى 20ألفا في أيلول/ سبتمبر 2004، حسبما ذكر البنتاغون. وأبلغ نائب قائد قوات التحالف في العراق، الجنرال اندرو غراهام، مجلة «تايم» في أوائل شهر أيلول/ سبتمبر 2004، أن العدد الحقيقي يتراوح باعتقاده بين 40–50 ألف شخص.

المهم أن النموذج البديل لمحاربة الإرهاب ينسجم مع التفكير الأحدث عهدا حول نزع سلاح الفصائل العسكرية التقليدية: لقد تعلمنا أنه حتى لو نزعنا سلاح مجموعة معينة، فإن ذلك لن يكون كافيا لتحقيق السلام إذا استمرت الظروف التي تحول المدنيين إلى مقاتلين، خصوصا منذ أن تلقى العنف غير الممركز التشجيع نتيجة انتشار الأسلحة والفرص المتاحة لاستغلال السوق العالمية[17] لقد استفادت «القاعدة» نفسها من شبكات تجارة الماس، خصوصا في غرب أفريقيا، ونقلت تركيزها من شرق إلى غرب أفريقيا وذلك بعد تكثيف الإجراءات الأمنية في أعقاب تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام 1998 [18] هنالك قدر مهم من المبادرات المحلية ـ وجمع الأموال على الصعيد المحلي ـ دخل في بنية التنظيم. أما استهداف القيادة، فقد عزز بطرائق عديدة هذه اللامركزية[19].

العنف في سبيل عالم أكثر أمانا؟

أقنعونا بالحرب على العراق باعتبارها جزءا من «الحرب على الإرهاب». وكان من المفترض بهذه الحرب أن تجعل العالم أكثر أمانا في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر. فقد كان العراق يدعم الإرهاب، كما شكلت «أسلحة الدمار الشامل» التي يملكها صدام حسين تهديدا داهما: فإما أن تنشر وتستخدم بشكل مباشر أو تسلم إلى الإرهابيين. أما نشر الديمقراطية فسوف يشجع بحد ذاته على الأمن ـ فلو اكتفينا بالمنطق وحده لعرفنا أن الحرب بين البلدان الديمقراطية تظل أقل احتمالا. لكن هذا التفكير المنطقي يعاني من عيوب خطيرة وأخطاء شنيعة، والتحقيق المفصل الذي أجراه جيمس فالوس (2004)وجد أن المختصين بالأمن القومي الأمريكي اعتبروا استجابة إدارة بوش لأحداث الحادي عشر من سبتمبر بمثابة كارثة[20] إذ تبرز فيها ثمانية عيوب وأخطاء.

أولا، ليس ثمة أي دليل دامغ يثبت وجود صلة بين صدام و«القاعدة» (ناهيك عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر). وفي الحقيقة، يبدو أن «القاعدة» عارضت

بشدة نظام صدام، حيث أدان أسامة ابن لادن صدام حسين باعتباره «كافرا». وحاولت إدارة بوش جهدها إثبات وجود صلة بين «القاعدة» وصدام لكنها فشلت[21]. واعترف رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، في معرض رده على أسئلة أعضاء في البرلمان (2003 /1 /21)، بعدم العثور على دليل يثبت وجود صلات تربط بين «القاعدة» وصدام ـ وهو أمر كررته على مسامعه مرارا وكالات الاستخبارات البريطانية[22]. كما اعترف بوش أيضا في نهاية المطاف: «لم يكن لدينا دليل يثبت تورط صدام في أحداث الحادي عشر من سبتمبر[23]».

الشرخ الرئيس الثاني في مشروع جعل العالم أكثر أمانا من خلال مهاجمة العراق هو عدم العثور على أسلحة دمار شامل، بالرغم من التحقيقات التي أجرتها الكوادر المختصة الأمريكية والبريطانية داخل العراق المحتل. أما القضاء على التهديد المزعوم الذي تشكله هذه الأسلحة فكان الذريعة الرئيسة التي قدمت لتبرير الحرب. لكن يبدو الآن واضحا أن نظام التفتيش عن الأسلحة كان يعمل بصورة مرضية. ومثلما لاحظ هانز بليكس، كبير مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة عام 2004 «نجحت سياسة الاحتواء المنخفضة التكلفة نسبيا، التي تعرضت لكثير من الذم والطعن، ولم يكن ثمة حاجة لمكافحة انتشار الأسلحة بسياسة مرتفعة التكلفة [أي الحرب][24]».

لاحظ تقرير صدر في تموز/ يوليو 2003 عن لجنة الشؤون الخارجية البريطانية أن الوثائق التي تزعم أن العراق كان يسعى للحصول على اليورانيوم من النيجر قد تبين أنها مزورة ومزيفة. وتقرير الحكومة البريطانية (أيلول/ سبتمبر 2002) الذي أكد الحاجة الملحة لنزع أسلحة صدام حسين، يعتبر الآن مشينا وكاذبا ومزورا ويطلق عليه استنكارا اسم «ملف الاحتيال». ويتابع تقرير لجنة الشؤون الخارجية قائلا:

زعم الملف أيضا أن الجيش العراقي سيكون قادرا على نشر رؤوس حربية تحتوي أسلحة بيولوجية وكيماوية بخلال 45 دقيقة من تلقي الأمر بذلك. ومن المعروف أن الزعم مرتكز على مصدر واحد وأنه لا يوجد دليل يثبته[25].

وعلى حد تعبير مستشار سابق في الحكومة العمالية «لم تجر أي محاولة لتفسير حقيقة أن ادعاء الخمس وأربعين دقيقة السيئ السمعة أشار إلى الذخيرة الميدانية فقط، وأتى من مصدر واحد بدون بينة تثبته. ولو جرت مثل هذه المحاولة لما أعلنت صحيفة ـ صن ـ على صدر صفحتها الأولى (أيلول/سبتمبر 2003) ـ البريطانيون على بعد 45 دقيقة من الهلاك[26].

المشكلة الثالثة في الهجوم على العراق (ربما تكون الأهم ولسوف نناقشها بالتفصيل لاحقا) هي أن الهجوم ذاته قد أثبت نتائجه العكسية تماما وذلك فيما يتعلق بمحاربة الإرهاب. فخلال عمليات السلب والنهب التي شجع عليها الاحتلال، فقدت كمية تقدر بثلاثمائة وثمانين طنا من المواد شديدة الانفجار ذات الصلة بالأسلحة النووية من مصنع يقع إلى الجنوب من بغداد، وحذرت وكالة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة من أن الإرهابيين ربما يحصلون حاليا على «أعظم كنز من المتفجرات في التاريخ[27]». والأهم أن الهجوم عمق وفاقم مشاعر الغضب التي تشجع الإرهاب بين الإسلاميين المتشددين على وجه الخصوص. كما أدى إلى تفجر مقاومة كبرى داخل العراق. وفي حين أن غالبية المقاومين هم من العراقيين، إلا أن العراق أصبح أيضا قطبا جاذبا ونوعا من القضية المثيرة لاهتمام هؤلاء المتشددين والمقاتلين في أماكن أخرى: تماما كما كانت أفغانستان خلال سنوات الجهاد ضد قوات الاحتلال السوفييتي. أما البيانات والتصريحات الأمريكية حول الحق في العمل العسكري أحادي الجانب و«الدفاع الوقائي عن النفس» فقد أذكت نيران

الغضب والخوف. ولاحظت مجلة «تايم» أن المقابلات التي أجرتها مع الزعماء الدينيين والعلماء المسلمين والمحللين الحكوميين والمواطنين العاديين في عشرات من بلدان العالم «كشفت أن حماسة أولئك المتشبثين بالصيغ الراديكالية للإسلام قد زادت واشتدت منذ الحادي عشر من سبتمبر[28]». وحتى لجنة الشؤون الخارجية البريطانية لاحظت (في تموز/ يوليو 2003) أن الحرب على العراق ربما أعاقت جهود محاربة ابن لادن و«القاعدة»، وعززت وضاعفت جاذبية التنظيم بالنسبة للمسلمين[29] لقد ساعدت الحرب على العراق شبكة «القاعدة» في مجالات الدعاية والتجنيد والتبرعات المالية، إضافة إلى تحول العراق إلى معسكر تدريبي لها[30]، وزودتها بخبرة ميدانية مفيدة في تكتيكات حرب المدن على وجه الخصوص[31] وحين تستخدم الولايات المتحدة قوة نارية هائلة خلال عمليات محاربة التمرد في العراق، فإن العديد من آثارها التدميرية تصور على أشرطة فيديو وتستخدم لاحقا في الدعاية لصالح التمرد [32] توبي دودج، المتخصص في الشؤون العراقية، علق قائلا إن حرب العراق كان لها تأثير أكبر في المسلمين البريطانيين مقارنة بالشيشان وفلسطين، حيث لم يكن الجنود البريطانيون والأمريكيون مشاركين بشكل مباشر في قتل المسلمين[33]صحيح أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر سبقت غزو العراق، إلا أنها استهدفت الولايات المتحدة لا بريطانيا.

يؤكد هوغ روبرتس، المتخصص في شؤون مصر والجزائر، على عدم وجود ما هو «طبيعي» أو طويل الأمد فيما يتعلق بالمشاعر المعادية لأمريكا (رغم تشديد تشومسكي على استمرار الانتهاكات الأمريكية الجائرة والطويلة الأمد). لكن الغضب على الحكومات المحلية تفاعل على نحو مطرد مع الغضب على الولايات المتحدة ليصنع توليفة كامنة وخطرة[34] فقد زاد الهجوم على العراق عام 2003 من حدة المشاعر المعادية لأمريكا في باكستان والسعودية وفلسطين والجزائر وغيرها ـ مثلما فعلت حرب الخليج عام 1991. وفي أعقاب الهجوم على العراق عام 2003، شهدنا ـ

في عالم يفترض أن يغدو أكثر أمانا بعد إسقاط صدام ـ تفجيرات مرتبطة بالإسلاميين المتشددين تحدث في إسبانيا والسعودية وباكستان والمغرب وروسيا والشيشان وتركيا وإندونيسيا وبريطانيا وغيرها[35]. وحرص بلير على إنكار أي صلة بين تفجيرات لندن (تموز/ يوليو 2005) وحرب العراق، لكن معظم البريطانيين خالفوه الرأي. وكان ديفيد بلنكت، وزير داخلية توني بلير آنذاك، هو الذي دافع عن قانون مكافحة الإرهاب (في كانون الأول/ ديسمبر 2001) اعتمادا على أن هناك «مستوى عاليا من الخطر يأتي من تحالفنا العسكري مع الولايات المتحدة»[36]. وذكر مسؤولو الاستخبارات في الولايات المتحدة وبريطانيا في أوائل عام 2005 أن تهديدا داهما يأتي من مجموعات من الشبان المسلمين الذين تحولوا إلى الراديكالية وليس لديهم سوى صلة واهية (أو ليس لهم صلة على الإطلاق) مع «القاعدة». في بريطانيا، ذكر كبار مسؤولي الاستخبارات وضباط الشرطة في أوائل عام 2005 أن عدة هجمات إرهابية مخططة قد أحبطت هناك[37]. وفي السابع من تموز/ يوليو 2005، حدثت أربعة انفجارات عنيفة في قطارات الأنفاق وحافلة للركاب في لندن، إضافة إلى العثور على أربع قنابل أخرى لم تنفجر بعد أسبوعين. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 2005، قال بوش: إن عشرة من الهجمات التي خططت لها «القاعدة» على الأقل قد أحبطت منذ الحادي عشر من سبتمبر، ثلاثة منها في الولايات المتحدة[38].

الخطأ الرابع في الوعد المقدم بجعل العالم أكثر أمانا (وهو في الوقت ذاته خطأ واضح لكن لم يلحظه أحد) أن الهجوم على العراق واحتلاله لاحقا شكلا مصدرا للإرهاب[39]. إذ لا معنى لاستخدام الإرهاب للقضاء على الإرهاب. ووجدت إحدى الدراسات التي استقت معلوماتها من تقارير وسائل الإعلام أن حوالي 7350 مدنيا قتلوا خلال مرحلة «القتال الرئيس» التي سبقت الأول من أيار/ مايو 2003[40] كما قتل العديد غيرهم في أعمال السلب والنهب، وبسبب وجودهم في مرمى

النيران المتقاطعة، ونتيجة رد قوات التحالف على مصادر النيران، إضافة إلى تدهور أوضاع البنية التحتية الصحية. ووجدت دراسة مفصلة نشرت في مجلة «لانسيت» (تشرين الأول/ أكتوبر 2004) أننا نعتقد، اعتمادا على تقديراتنا المتحفظة، أن عدد الوفيات بين العراقيين بلغ حوالي مائة ألف أو أكثر بسبب ومنذ غزو العراق عام 2003. معظم الضحايا قتلوا، وغالبية القتلى سقطوا بسبب الغارات الجوية التي شنتها قوات التحالف[41] ومثلما ذكر أحد أصحاب مواقع الإنترنت العراقية (نيسان/ أبريل 2004): «آمل أن يشعر أحد بأمان أكبر، لأننا بالتأكيد لا نشعر به مطلقا[42]» أتى جزء من ذلك الخطر من أكبر حملة مستدامة من التفجيرات الانتحارية في التاريخ. فعلى وجه العموم، بلغ معدل المدنيين العراقيين ورجال الشرطة الذين قتلوا في المدة الممتدة بين آب/ أغسطس 2004 وأيار/ مايو 2005 أكثر من 800 في الشهر، مع ارتفاع معدلات الوفيات منذ انتخابات كانون الثاني/ يناير 2005 [43].

الخلل الخامس في فكرة أن الهجوم على العراق سيجعل العالم أكثر أمنا يتمثل في كونه عرض العديد من الأجانب في البلد للعنف والموت. وهذا يشمل بالطبع جنود التحالف. فحتى الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 2005، قتل 2198 من جنود التحالف في العراق، إضافة إلى أكثر من 15200جريح أمريكي أصيبوا في المعارك[44] وفي التاسع عشر من آب/ أغسطس 2003، قتل 23 شخصا على الأقل في تفجير فندق القناة الذي تستخدمه الأمم المتحدة في بغداد. وغادرت غالبية وكالات الغوث العاصمة العراقية.

تتمثل المشكلة السادسة في أن الهجوم، بدلا من أن يحد من انتشار الأسلحة النووية، شجع على ما يبدو انتشارها. وحقيقة أن الولايات المتحدة كانت تتحدث، فعلا، عن «الضربة النووية الأولى» ضد الأهداف الإرهابية، تفاقم من شدة الخوف المسيطر. ويبدو أن التحالف الأطلسي الأمريكي/ البريطاني مستعد لمهاجمة أولئك

الذين لا يشكلون خطرا داهما وفوريا وحدهم، وأوجدت هذه السياسة دافعا عكسيا للتسلح بصورة سريعة (وسرية) من أجل الخروج من هذه الفئة المعرضة للخطر. ومثلما هي الحال في الحروب الأهلية، شكل التشديد على مهاجمة الأشخاص العزل دافعا رئيسا ـ في الممارسة العملية ـ للحصول على السلاح[45]. ويقول المسؤولون الأمريكيون وخبراء الطاقة الذرية: إن بمقدور إيران امتلاك قنبلة نووية بحلول عام 2006. ويبدو أنها منذ الآن قد اكتسبت التقانة اللازمة لتخصيب اليورانيوم[46]. ولاحظ جون كيري في المناظرة التي جمعته مع بوش قبل الانتخابات، أنه في اللحظة التي جرى خلالها غزو العراق، كان لدى عدد يتراوح بين 35–40 بلدا قدرات أكبر من العراق على صنع الأسلحة. أما المقارنة بين قدرات العراق وكوريا الشمالية فتشير إلى أن عدم امتلاك أسلحة الدمار الشامل هو الذي أوجد الظروف المناسبة للغزو. وعلى حد تعبير أحد مسؤولي وزارة الخارجية في كوريا الشمالية «تظهر حرب العراق أن السماح بنزع السلاح من خلال عمليات التفتيش لا يساعد على تجنب الحرب، بل ربما يشعل فتيلها»، ليختتم قائلا: «وحدها القوة العسكرية الهائلة والرادعة» تستطيع منع الهجمات على البلدان التي تكرهها الولايات المتحدة[47]. ومثلما علقت ايزابيل هيلتون في شباط / فبراير 2003.

> منذ الحرب الكورية، فهم [النظام الحاكم في كوريا الشمالية] أن إزالة نظام كيم [جونغ ايل]، وحتى كوريا الشمالية ذاتها، هو هدف السياسة الخارجية الأمريكية على المدى البعيد. لذلك، شكل ردع الولايات المتحدة هدفا جوهريا بعيد المدى.. الصين وروسيا واليابان وكوريا الجنوبية تريد جميعا أن تتخلى كوريا الشمالية عن أسلحتها النووية. لكنها تعرف أن مثل هذا الاتفاق يتطلب ضمانا بأن لا تشن الولايات المتحدة ضربة استباقية. في العشرين من أيلول/ سبتمبر من السنة الفائتة، أعلنت الولايات المتحدة أن من حقها شن ضربات استباقية[48].

الإنفاق العسكري الروسي زاد بنسبة هائلة خلال ولاية بوش؛ ففي شباط/ فبراير 2004، أجرت روسيا أكبر مناورة عسكرية لها منذ عقدين من السنين، وأعلن الجنرالات الروس ووزير الدفاع سيرغي إيفانوف أنهم يردون على خطط واشنطن «لتحويل الأسلحة النووية إلى أداة لأداء المهمات العسكرية». كما يمكن توقع ردة فعل ماثلة من جانب الصين أيضا[49]. ويبدو أننا نسينا أن القنبلتين الذريتين اللتين ألقتهما الولايات المتحدة على اليابان (التي لم تكن تمتلك سلاحا ذريا) عام 1945 ساعدت في حث وتحفيز البرنامج الذري السوفييتي في المقام الأول.

المشكلة السابعة في الهجوم على العراق أنه ساعد على تقويض وإضعاف فكرة الأمن الجماعي برمتها، والحق ضررا فادحا بالمؤسسات التي حملت مسؤولية تحقيقها، خصوصا الأمم المتحدة. وبإمكاننا القول: إن الهجوم على العراق كان عملية لتطبيق القانون دون تفويض رسمي من السلطة المسؤولة، لكن هذا الوصف سيكون مبالغا في اللطف. فمثل هذه العمليات ترد في الحالة النمطية على الجرائم، لكن الهجوم على العراق كان استباقيا بالأساس. وبذلك فهو يختلف عن هجوم التحالف عام 1991 حين رد بوش الأب على غزو العراق للكويت. كما كان حجم الموافقة الدولية مختلفا اختلافا جذريا أيضا: وحين نعبر عن ذلك بالأسلوب الشائع نقول: في حين أن حرب العراق عام 1991 قد شنت بمصادقة الأمم المتحدة (وبموافقة مجلس الأمن)، فإن حرب عام 2003 لم تصادق عليها الأمم المتحدة[50]. إذ عارضت الهجوم على العراق عام 2003 غالبية أعضاء مجلس الأمن، واعتبره العديد من خبراء القانون الدولي البارزين هجوما غير مشروع وغير قانوني[51] وعلق كبير مفتشي الأسلحة هانز بليكس قائلا: «ليس من المنطقي التوكيد على حق دولة واحدة عضو في مجلس الأمن في اتخاذ إجراء عسكري لتنفيذ قرارات المجلس حين لا تكون غالبية أعضاء المجلس مستعدة بعد لتخويلها الحق في اتخاذ مثل هذا الإجراء[52]» أما المدعي العام البريطاني، فقد أبلغ بلير أن الأمم المتحدة هي المخولة، وليس هو، بتقرير ما إذا كان

العراق يمتثل لقرار الأمم المتحدة السابق (رقم 1441) الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر والذي يدعو العراق للسماح بحرية عمل مفتشي الأسلحة[53] ومثلما يوضح خبير القانون الدولي تشالوكا بياني، فإن من حق مجلس الأمن وحده تقرير ماهية «العواقب الوخيمة» التي أشار إليها القرار[54] 1441 وعلى أي حال، فإن الإشارة المعتادة للحرب هي «استخدام جميع الوسائل الضرورية» لا «العواقب الوخيمة»، والقرار رقم 1441 قدم بعد توكيد السفير البريطاني في الأمم المتحدة، جيرمي غرينستوك، على أن القرار لن يتضمن أي «آلية» لشن الحرب بدون مزيد من النقاش في مجلس الأمن[55].

المشكلة الأخيرة في الهجوم على العراق هي أن مشروع نشر الديمقراطية بالقوة يعاني من شرخ عميق. فالإذلال الناتج عن فرض حل بالقوة يمثل مشكلة. قال جورج سوروس، المطلع على الخطوات العملية لتشجيع الديمقراطية، عن محاولة استخدام القوة لفرض الديمقراطية على العراق: «في ضوء الانقسامات الاثنية والمذهبية والدينية، يمكن لإدخال الديمقراطية أن يؤدي بسهولة إلى تفكك البلد[56]» التوترات الاثنية والمذهبية تشتد فعلا، حيث يشعر العديد من العرب السنة بالتهميش والإقصاء عن المفاوضات حول الدستور الجديد، بينما يربض الشيعة والكرد على معظم منابع النفط، ويستهدف المتمردون من العرب السنة المساجد الشيعية والحجاج الشيعة، ويتزايد عدد قتلى الهجمات المضادة والانتقامية التي يشنها الشيعة؛ وحتى تنامي استخدام اللغة المذهبية يتضمن ـ وربما يساعد على ـ تمذهب وعرقنة السياسات العراقية[57].

إذا كان منطق الهجوم على العراق يعاني من مثل هذه العيوب والأخطاء، فماذا عن الهجوم الذي شنته الولايات المتحدة على أفغانستان بعد الحادي عشر من سبتمبر مباشرة؟ برغم عدم إثارة قضية أسلحة الدمار الشامل هنا، إلا أن العديد من العيوب والأخطاء والشروخ تظهر واضحة في هذه المقاربة.

أولا، مازالت الصلة مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، رغم أنها أكثر احتمالا، عرضة للشك والمساءلة. ومن المؤكد أن الهجوم على أفغانستان عكس حقيقة أن الطالبان قد سمحوا لـ«لقاعدة» بتأسيس مقر لها ومعسكرات تدريب في أفغانستان[58]، ونجح الهجوم فعلا في إيقاع الفوضى في تنظيم «القاعدة» وتشتيت قيادتها وأنصارها ـ على الأقل إجبار العديد منهم على الهرب[59]. كان ابن لادن يمثل بالتأكيد صلة مهمة بين أحداث الحادي عشر من سبتمبر والهجوم على أفغانستان، لكنه نجا من الهجوم، بسبب اتكال الولايات المتحدة على الميليشيات المحلية وتركيز بؤرة اهتمامها على العراق[60] ومن المثير للاهتمام عدم وجود أي أفغاني بين الذين نفذوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ فقد كان معظمهم من السعوديين، كما أن معظم التمويل أتى من السعودية[61]. لكن لم تتعرض السعودية لأي رد انتقامي. ففي تقرير مفصل أعد لحساب مشروع البدائل الدفاعية، لاحظ كارل كونيتا:

> لم يجمع نظام طالبان، الذي اجتذب معظم انتباهنا، سوى علاقة عرضية طارئة بأنشطة «القاعدة» خارج المنطقة. وفي الحقيقة، فإن لمعظم منشآت «القاعدة»، ومعظم المقاتلين الأجانب تحت إمرتها في أفغانستان، علاقة وثيقة بالحرب الأهلية الدائرة هناك. كما أن معظم كوادر التنظيم القادرة على شن أعمال إرهابية في البلاد الأخرى أقامت وتقيم خارج أفغانستان، وبالتالي كانت خارج المدى المجدي لعملية الحرية الدائمة [الهجوم بقيادة الولايات المتحدة][62].

حين يتعلق الأمر بأنشطة «القاعدة» خارج تخوم المنطقة، لم تكن أهمية أفغانستان تتمثل في كونها ملاذا آمنا ومعسكرا تدريبيا؛ بل تكمن في توفير قاعدة تجنيد لكوادر المستقبل (حيث استخدم معظم متطوعي القاعدة كقوات صدمة في الحرب الأهلية أو في الأجهزة الأمنية التابعة لطالبان). ولم تكن «القاعدة» بحاجة فعلا إلى دول أو منشآت تدريبية ضخمة في الأماكن المفتوحة، مثلما يلاحظ كونيتا؛

والمستودعات والمواقع الصغيرة المخصصة لأغراض خاصة (مثل مدارس الطيران في فلوريداً) خدمت أغراضها على الوجه الأكمل[63]

الشرخ الثاني في منطق الهجوم على أفغانستان يتمثل في إهمال الخيارات السلمية الأخرى. صحيح أن المساعي والجهود الأمريكية السابقة لإقناع الطالبان بتسليم ابن لادن لم تفلح، لكن كان بالمستطاع تحديد موعد نهائي[64] إذ طالب زعيم طالبان الملا عمر الولايات المتحدة بتقديم دليل يثبت تورط ابن لادن في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وأشار إلى أنه سيكون آنئذ مستعدا لتسليم ابن لادن إلى محكمة إسلامية في إحدى البلدان الإسلامية (وفي عرض تصالحي آخر، أعلن الطالبان استعدادهم لتسليم ابن لادن إلى محكمة تضم في هيئتها قاض مسلم واحد على الأقل)[65]. كانت باكستان تتمتع بنفوذ واسع لدى الطالبان ولربما أثمرت مقاربة أخرى تتسم بالصبر والتأني في خلال ستة أشهر أو نحوها[66]. وفي الحقيقة، قيل إن اثنين من الأحزاب الإسلامية الباكستانية قد تفاوضت حول تسليم ابن لادن إلى باكستان، لكن المفاوضات أوقفت بتدخل من الرئيس برويز مشرف، وفقا لنصيحة من الولايات المتحدة كما هو معروف[67]. أما مطالبة الولايات المتحدة بتسليم ابن لادن وغيره من كوادر «القاعدة»، وإغلاق معسكراتها ومواقعها، فقد اعتبرت غير قابلة للتفاوض. يعلق كونيتا على ذلك قائلا:

> كان المطلوب أن يركع الطالبان. وكان من المفروض توقع ردة فعل من الكبرياء الوطنية. الأمر الذي أعطى قوة دافعة للمتشددين (الطالبان من قدماء المحاربين) في قندهار، بدلا من تعزيز دور مجلس الشورى (المكون من العلماء والملالي) الأكثر مرونة في كابول[68].

المشكلة الثالثة في الهجوم على أفغانستان أنه شجع على تفجر مقاومة مهمة ومستمرة داخل البلاد. أما الرابعة فهي أن الهجوم ذاته شكل مصدرا للإرهاب.

والخامسة أن الهجوم فاقم من مشاعر الغضب لدى العديد من المسلمين في شتى أرجاء العالم. ولسوف نتناول هذه النقاط بمزيد من التفصيل لاحقا.

أخيرا، كان للهجوم على معسكرات «القاعدة» فائدة مشكوك بها في سياق مواجهة عدو يأخذ هيكلا تنظيميا لا مركزيا ولا محددا على نحو متزايد. وفي الحقيقة، أسهم الهجوم في نزع المركزية عن «القاعدة»، ونشر المجموعة الإرهابية بدلا من القضاء عليها. وتبعا لتقديرات أحد كبار الخبراء المتخصصين في مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي فإن حرب أفغانستان لم تسفر إلا عن تقليص قدرة «القاعدة» بنسبة 30% فقط. إذ إن العديد من ناشطيها فروا إلى إيران[69]. كما عاد العديد من قياديها إلى أوطانهم الأصلية، بما فيها الشيشان وجورجيا واليمن وشرق أفريقيا[70].

وفي حين وجد بعض الإرهابيين من أعضاء «القاعدة» الذين تفرق شملهم أن من الصعب عليهم العمل من جديد[71]، لكن من غير المرجح أن يشكل ذلك عقبة كأداء. ولاحظ روهان غوناراتنا، الخبير المتخصص في شؤون «القاعدة» (2003) أن القادة الإقليميين يعملون الآن بشكل مستقل عن القيادة المركزية. والأهم أن تفرق كوادر «القاعدة» ساعد على ما يبدو في تعزيز قيادة تتنامى لامركزيتها باطراد وتعتمد غالبا على مصادرها التمويلية المحلية[72]. في أواخر عام 2001، قال مسؤولو الاستخبارات الأمريكية إنهم يعتقدون أن ابن لادن نقل سلطة اتخاذ القرار بشن الهجمات الإرهابية إلى خلايا فردية داخل شبكة «القاعدة[73]». وفي أيار/ مايو 2003، علق جوناثان ستيفنسن من المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية قائلا: إن مسعى مكافحة الإرهاب عمل (على عكس ما كان يقصد منه) على «إجبار الشبكة الدولية المراوغة واللامركزية أصلا على التحول إلى كيان من الأصعب تحديده وتحييده.. وبفضل التقانة وجاذبية الجهادية (المتعددة الجنسيات)، لم تعد المعسكرات الأفغانية ضرورية [الآن]» ولاحظ ستيفنسن أن المنسقين على المستوى

المتوسط، الذين تدربوا في أفغانستان، استطاعوا لاحقا العمل في عشرات البلدان، وأن تفجيرات كتلك التي وقعت في كينيا عام 2002، يمكن أن يترك قرار القيام بها إلى «الأعضاء المحليين[74]». ومن المؤكد أن الهجوم على أفغانستان لم يمنع تفجير الملهى الليلي في بالي (تشرين الأول/أكتوبر 2002) ـ وهو عمل إرهابي فظيع جرى بالتنسيق مع «الجماعة الإسلامية»، المنظمة الإرهابية الإسلامية في جنوب شرق آسيا التي تعتمد في تمويلها على «القاعدة[75]». وتقدر تكلفة تنفيذ عملية التفجير في بالي بحوالي 35ألف دولار، وهو مبلغ يمكن جمعه بسهولة من بطاقات الائتمان المزورة وشبكات الجريمة الصغيرة التي يديرها بعض المتطرفين الإسلاميين[76]. وفي معرض الإشارة إلى معسكرات التدريب التابعة لـ«القاعدة» في أفغانستان، علق رونالد جاكارد الخبير الفرنسي المتخصص في شؤون الإرهاب، قائلا: «المعسكرات هي التي كلفت ـ القاعدة ـ الملايين، أما اليوم فهي ليست بحاجة إلى هذه الأموال كحالها فيما مضى». والجدير بالذكر أن تكلفة تخطيط وتنفيذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر قدرت بحوالي 400 إلى 500 ألف دولار[77].

يعتقد جي. تي. كاروسو، مساعد مدير قسم مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي أن عملية الحرية الدائمة في أفغانستان قد سببت «إرباكا» في عمليات «القاعدة»، لكن لم «توقفها» بالضرورة: نتيجة الطبيعة اللامركزية للتنظيم. فكما يقال أحيانا، تصرفت «القاعدة» كمؤسسة تعطي المنح لأولئك الذين يقدمون خططا «واعدة» للهجمات الإرهابية. كما جرت مقارنتها بشركة لها «رسالة» مشتركة محددة في بيانها التأسيسي، وتدعم المبادرات على المستوى المحلي. ومن الأصعب رصد ومراقبة المنظمات اللامركزية والسيطرة عليها[78].

من الأمور التي لم تحسم بعد إمكانية وصف شبكات الإرهابيين الإسلاميين المفككة بأنها تابعة لـ«لقاعدة». كتب وليام دالريمبل (في «نيويورك ريفيو أوف بوكس») يقول:

في حين هيمنت ـ القاعدة ـ على الأخبار منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 إلا أن هناك العشرات من الجماعات المشابهة المكونة من الراديكاليين الإسلاميين المستقلين الذين تدربوا منذ الثمانينيات في معسكرات على الحدود الأفغانية. والعديد من هذه الجماعات أدارتها المخابرات الباكستانية ومولتها المخابرات المركزية الأمريكية (أحد المصادر الموثوقة قدر المساهمة الأمريكية بحوالي 7 مليارات دولار[79])..

وفي دراسة مهمة تناولت تنظيم «القاعدة»، لاحظ جيسون بيرك أنه بحلول الحادي عشر من سبتمبر، تمتع ابن لادن بولاء حوالي مائة من الأفراد المتحمسين ـ الذين شكلوا النواة الصلبة لـ«القاعدة»[80]، وأضاف:

ظل ابن لادن طيلة سنوات حياته، باستثناء خمس (أو ثلاث) شخصية هامشية في الحركة الجهادية الإسلامية الحديثة.. وخلال السنوات الخمس عشر الماضية، وصل عشرات الألوف من الشباب المسلم إلى معسكرات التدريب في أفغانستان. والعديد منهم لم يسمع قبل عام 1998 بأسامة ابن لادن أبداً[81].

وحتى في السياق الأفغاني، لم تحل مشكلة «القاعدة» أبداً: فقد بقي الطالبان و«القاعدة» حاضرين داخل الحدود. وذكرت الأمم المتحدة أن «القاعدة» أعادت في وقت لاحق افتتاح معسكرات تدريبية في الأماكن النائية من شرق أفغانستان حيث يتدفق إليها مجندون جدد[82]. وفي حين أن الحرب في أفغانستان قد «انتهت» رسميا منذ أمد بعيد، إلا أن عمليات القصف التي تشنها الولايات المتحدة لم تتوقف عام 2001. وفي الحقيقة مازال القصف مستمرا حتى عام 2005: في محاولة يائسة للقضاء على قوة تضم عناصر من الطالبان و«القاعدة»[83].

مبدأ الضربة الوقائية الاستباقية

إلى جانب الاختيار التسلسلي على ما يبدو للأعداء، هنالك تغيير كاشف ومنذر بالخطر في السياسة الخارجية المعلنة للولايات المتحدة. قال مساعد وزير الخارجية ريتشارد هاس:

> ما ترونه في هذه الإدارة (بقيادة جورج بوش) ظهور مبدأ جديد أو جملة من الأفكار الجديدة.. حول ما يمكن تسميته بحدود السيادة. فالسيادة تستتبع الالتزامات. إذ لا ينبغي أن يذبح أحد مواطنينا. الالتزام الآخر هو عدم دعم الإرهاب بأي طريقة كانت. فإذا فشلت حكومة في الوفاء بهذه الالتزامات، فإنها تغرم بحرمانها من بعض مزايا السيادة، بما فيها الحق بأن يترك لها التحكم بما يجري داخل أراضيها. ويكون للحكومات الأخرى، بما فيها حكومة الولايات المتحدة، الحق في التدخل. وفي حالة الإرهاب، يمكن لذلك أن يؤدي حتى إلى الحق في الدفاع الوقائي عن النفس. ويمكن في هذه الحالة التصرف بشكل استباقي، إن وجدت أسباب للظن بأن المسألة مسألة متى وليست إذا كنا سنتعرض للهجوم[84].

وفي معرض الإشارة إلى «تلك المنظمات الإرهابية العالمية أو أي إرهابي أو دولة ترعى الإرهاب وتحاول حيازة أو استخدام أسلحة الدمار الشامل أو الأسلحة الممهدة لها»، قالت الحكومة الأمريكية (في أيلول/ سبتمبر 2002):

> في حين سوف تسعى الولايات المتحدة باستمرار للحصول على دعم المجتمع الدولي، فإننا لن نتردد في العمل لوحدنا، إذا دعت الضرورة، لممارسة حقنا في الدفاع عن النفس عبر العمل الاستباقي ضد هؤلاء الإرهابيين، لمنعهم من إلحاق الضرر بشعبنا وبلدنا[85].

لنلاحظ أن ذلك ليس مجرد دفاع عن الضربات الاستباقية ضد الدول التي تملك أسلحة دمار شامل؛ بل ضد التي تحاول حيازتها أيضا، وحتى تلك التي تحاول حيازة «الأسلحة الممهدة لها». وليس من الواضح من هو المستثنى من هذا المشروع الواسع المدى. علاوة على ذلك، أعلن بوش قائلا: «إننا لن نفرق بين الذين خططوا لهذه الأعمال [هجمات الحادي عشر من سبتمبر] وأولئك الذين يؤونهم»[86]. وفي الحقيقة، يبدو أن المبدأ قابل للتوسع والتمدد بدون حدود تقريبا. ويمثل ذلك كله نقلة كبرى من سياسة الحد من انتشار الأسلحة النووية إلى سياسة إزالة خطر التهديدات النووية (وأسلحة الدمار الشامل الأخرى) بشكل فعال. وذكرت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) أن على الولايات المتحدة أن تكون مستعدة لاستخدام الأسلحة النووية لتوقي، والرد على، استخدام أسلحة الدمار الشامل[87].

ولاحظ نائب وزير الدفاع بول ولفوفيتز، الذي ألح على جعل العراق هدفا أساسيا في «الحرب على الإرهاب» بعد الحادي عشر من سبتمبر:

> الأمر لا يقتصر على مجرد إلقاء القبض على أشخاص وتحميلهم المسؤولية، بل القضاء على الملاجئ الآمنة، وأنظمة الدعم، والدول التي ترعى الإرهاب. لسوف تكون حملة لا عملا مفردا. وسوف نستمر في مطاردة هؤلاء ومن يقدمون الدعم لهم حتى يتوقف الإرهاب[88].

شكل ذلك كله «رخصة» واسعة النطاق للقتل وإشارة قوية ومعبرة إلى حرب بلا نهاية. قال دونالد رمسفيلد (في حزيران/ يونيو 2005): إن التمرد في العراق قد يستمر مدة اثني عشر عاما[89]. وحتى الاسم الذي أطلق في البداية على الضربات الموجهة إلى أفغانستان («عملية العدالة المطلقة») بدا أنه يوحي بدلالته إلى نوع من التعطش للحرب المؤبدة[90] وأشار البنتاغون إلى الحاجة إلى «تغيير النظام» في إيران. ولاحظ ديفيد فروم وريتشارد بيرل، وهما من المحافظين الجدد النافذين

الذين يحتلون مناصب مهمة في «معهد أمريكان انتربرايز» (2003)، أن إيران «دولة إرهابية، وأسوأ دولة في العالم»[91]. وأشارا إلى النظامين الحاكمين في إيران وكوريا الشمالية بالقول: «إنهما يمثلان تهديدات لا تحتمل للأمن القومي الأمريكي. وعلينا التحرك بجرأة ضدهما معا وضد جميع الدول الأخرى الراعية للإرهاب: سورية، وليبيا، والسعودية، وليس لدينا الكثير من الوقت»[92]. وكانت السعودية قد اتهمت بالتحريض على الإرهاب وبأنها «عدو مقنع»[93]. وأضاف الاثنان مزيدا من التفاصيل حين تحولا جهة الشرق الأقصى: «مصالحنا (ومصالح اليابان) تختلف عن مصالح كوريا الجنوبية. وبأسلوب أكثر صراحة نقول: إن أي رأس نووي قد تبيعه كوريا الشمالية إلى ـ القاعدة ـ أو غيرها من الجماعات الإرهابية أخطر بالنسبة لنا من اندلاع الحرب على شبه الجزيرة الكورية.. في كوريا، الطريقة المؤكدة لتجنب الحرب هي الاستعداد لخوضها»[94]. وفي فقرة تثير الرعب، يقترح فروم وبيرل ما يلي:

> بعد ذلك، يجب أن نسرع عملية إعادة نشر جنودنا على شبه الجزيرة الكورية بحيث يصبحون خارج مدى المدفعية والصواريخ الكورية قصيرة المدى. لقد بدأ الرئيس بوش والوزير رمسفيلد القيام بذلك. فمهمة الجنود الأمريكيين أصلا هي ردع الشمال عن غزو الجنوب مرة ثانية؛ أما اليوم فقد أصبحوا رهائن، يستغل الشمال ضعف موقعهم لردعنا ـ كما أن تواجدهم لا يشجع الجنوب على تحسين دفاعاته.. وحين نعيد نشر جنودنا، يجب علينا وضع وتطوير خطط تفصيلية للقيام بضربة استباقية ضد المنشآت النووية في كوريا الشمالية[95].

هنالك أيضا تهديدات خفية للصين: «تتحمل الصين مسؤولية البرنامج النووي لكوريا ويجب أن تحاسب عليه» [96]. كما يشير المؤلفان إلى احتمال أن تشكل الصين «خطرا مهددا» على المدى الطويل [97]. ووجد هذا القلق صدى في مراجعة البنتاغون لاحتياجات أمريكا العسكرية (تسربت التفاصيل عام 2005)، حيث ذكرت

الصين في سياق الحاجة إلى إنفاق عسكري ضخم لردع الدول المرشحة لتصبح قوى عظمى[98].

لم يكن هذا النوع من التعطش للحرب مقتصرا على الولايات المتحدة فقط. فقد قال توني بلير: إنه لو أحجم بوش عن التدخل في العراق لدفعه في ذلك الاتجاه. ونقل عن رئيس وزراء بريطانيا قوله أيضا: إن من الضروري بعد إسقاط صدام «التعامل» مع كوريا الشمالية. وفي حين يبدو أن هناك حدودا لمثل هذا المشروع على الصعيد العملي (على الأقل بسبب احتمال ثورة حزب العمال عليه)، إلا أن ميول ونزعات بلير لا يحدها على ما يبدو سوى القليل من القيود. وكان قد قال قبيل مهاجمة العراق: «ما يدهشنا هو عدد الأشخاص الذين يسعدهم بقاء صدام. فهم يسألون: لماذا لا نتخلص من موغابي، أو الطغمة الحاكمة في بورما. أجل، دعونا نتخلص منهم جميعا. أنا لا أفعل لأنني لا أستطيع، وحين أستطيع علي أن أفعل»[99].

مبدأ الضربة الاستباقية يتلقى الآن التهليل والاستحسان بوصفه شرعيا وقانونيا. لكنه كقاعدة مؤسسة للعلاقات الدولية أو القانون الدولي يعتبر خطيرا ومفككا يفتقد التساوق إلى حد مؤسف. إحدى الصعوبات تتمثل في إعلان حكومة من الحكومات أن الحرب وقائية استباقية بينما يكون لها دوافع وبواعث أخرى[100]. والأهم أن مبدأ الحرب الاستباقية قد يستحيل العمل به حتى وإن جرى تعميمه[101]. دعونا نفترض جدلا أن من حق دولة مهاجمة أخرى إذا اعتقدت أنها على وشك التعرض لهجومها. بالنسبة للبلدان التي ترى أن هذا المبدأ قد يصبح وسيلة ضدها (كوريا الشمالية؟ إيران؟ العراق ذاته؟)، هل تملك حق مهاجمة الولايات المتحدة لاستباق الهجوم القادم عليها؟[102].

في أيلول/ سبتمبر 2004 وفي أعقاب الهجوم الإرهابي على مدرسة بيلسان، أكدت روسيا على حقها في توجيه ضربة استباقية ضد القواعد الإرهابية في شتى

أنحاء العالم[103]. ولن يكون الأمر مناسبا (أو محل ترحيب من قبل الولايات المتحدة) إذا اعتبرت روسيا أن من حقها تطبيق قرارات مجلس الأمن الدولي المتعلقة بالأراضي التي تحتلها إسرائيل مثلا[104] يلاحظ بيتر سينغر أن «أمريكا تأوي المنفيين الكوبيين الذين استخدموا ميامي كقاعدة لشن هجمات إرهابية ضد كوبا»، ويسأل هل يعطي ذلك كوبا الحق في مهاجمة الولايات المتحدة؟[105]. ولن يعتقد سوى قلة من الناس أن دعم الولايات المتحدة لعمليات «الكونترا» الإرهابية ضد نيكاراغوا يبرر قصف هذه الأخيرة للولايات المتحدة[106]. ولا تشكل السوابق التاريخية الأبعد دعاية جيدة تشجع الهجمات على الدول المزعومة الداعمة للإرهاب. ففي عام 1914، حين شنت الإمبراطورية النمسوية ـ الهنغارية الحرب على صربيا (لتعجل باندلاع الحرب العالمية الأولى)، اتهمت حكومتها الصرب بالتورط في عملية اغتيال الارشيدوق النمساوي فرانز فردينان[107].

المشكلات الخطيرة الناجمة عن توكيد الحق بالضربات الاستباقية تصبح أشد وضوحا إذا طبقنا المبدأ في مجال القانون والنظام داخل الدول. فكيف ستكون حال المجتمع إذا اعتبرت مهاجمة أحد الأفراد مقبولة ومرغوبة لمجرد أن فردا آخر اعتقد أن له أسبابا تدعوه للظن بأن الأول ينوي إلحاق الأذى به؟ لربما يصح ذلك على المجتمع المحلي في مدينة سالم (ماساتشوستس) عام 1692! علاوة على ذلك، كيف ستصبح حال بلد من البلدان إذا سمح بمهاجمة جماعات بأكملها؛ لأن جماعة أخرى اعتقدت أن الضحايا كانت تنوي إنزال الضرر بها؟ ربما ينطبق ذلك على رواندا عام 1994، أو ألمانيا في ثلاثينيات القرن العشرين! لقد لجأ الأقوياء إلى العنف الجماعي منذ عهد بعيد، وعملوا على شرعنته ورحبوا به باعتباره «وقائيا»، كما سهلوا ممارسته بواسطة هذه التوقعات المثيرة للشبهات بالضبط؛ وبهذا المعنى، كما في كثير غيره، يتبع مبدأ بوش تراثا طويلا وخطيراً.

تأجيج الغضب

على الرغم من الرضى الواضح الذي يبديه بوش على اللعبة التي راهن عليها بكل ما يملك، إلا أن مشكلة الإرهاب تتجاوز ـ لسوء الحظ ـ «الأشرار» الاثنين والعشرين الذين تضمهم اللائحة التي يحتفظ بها (على أي حال مازال تسعة عشر منهم حرا طليقا رغم مرور ثلاث سنوات على الحادي عشر من سبتمبر). فقد اعتقلت الولايات المتحدة وحلفاؤها حوالي 2700 من الإرهابيين المعروفين أو الذين يشتبه بتورطهم بالإرهاب وذلك حتى شهر أيار/ مايو 2003)[108] فئة «المشتبه بهم» نفسها محل للشبهة، نظرا للدور الرئيس الذي لعبته عمليات الاعتقال الخاطئة في توليد وزيادة الإرهاب). ومع ذلك يمثل الرقم 2700 جزءا من أعضاء «القاعدة» الذين قدر عددهم بحوالي 18 ألفا في تسعين دولة عام 2003 وزعمت وكالة المخابرات المركزية نفسها أن عددا يتراوح بين 70–120 ألفا من المجندين تلقوا التدريب في معسكرات ابن لادن في أفغانستان[109]، رغم أن الرقم يشمل على ما يبدو إرهابيي «القاعدة» وغيرهم من الإرهابيين الدوليين، إضافة إلى العديد من الإرهابيين الذين يركزون نشاطهم على الساحات الوطنية [110]. أما الأمر الجلي، فهو أن مشكلة الإرهاب لا يمكن احتواؤها بواسطة نظام يفترض أن عدد الإرهابيين صغير ومحدد ونهائي. ونستطيع أن نرى ذلك حتى ضمن كل بلد على حدة. ففي أعقاب تفجيرات بالي (تشرين الأول/ أكتوبر 2002)، اعتقلت الشرطة الإندونيسية أكثر من تسعين من أعضاء «الجماعة الإسلامية» (الشبكة الإرهابية المنتشرة في جنوب شرق آسيا والمرتبطة بـ«القاعدة»). لكن ذلك لم يمنع تفجير فندق غربي في جاكرتا (آب/ أغسطس 2003)، حيث قتل عشرة أشخاص على الأقل، والتفجيرات التي وقعت مرة أخرى في بالي ذاتها (تشرين الأول/ أكتوبر 2005)[111] هذا لا يعني أن مثل هذه الاعتقالات مضيعة للوقت؛ بل ينبغي أن يؤخذ المورد اللامحدود على ما يبدو من الإرهابيين «الجدد» على محمل الجد.

وحتى عند التعامل مع حالة انعدام الأمن داخل العراق، يخطئ المسؤولون والجنرالات الأمريكيون في افتراض أن العدو يمثل تراتبية هرمية ـ تشابه كثيرا قوات الاحتلال ـ وأن القضاء على قيادته (أولا ابنا صدام، ثم صدام ذاته) سوف يوقف العنف. أما الشعور المعتاد بالصدمة حين لا تتحقق هذه النتيجة السعيدة على أرض الواقع فيكشف عن ذهنية معينة.

في حين أن بعض مسؤولي الإدارة الأمريكية عقدوا مقارنة متفائلة بين «القاعدة» والأفعى التي ستموت متى قطع رأسها، إلا أن محللين آخرين قدموا حجة أكثر معقولية تثبت الشبه بين الشبكة والفطر: عليك أن تعالج البيئة التي ينمو فيها [112]. وبدلا من تخيل الإرهابيين على هيئة مجموعة متميزة ومنفصلة من الأشرار، نحن بحاجة لمعاينة عمليات تشكلها وأنساق صيرورتها. كيف يصبح الناس إرهابيين؟ هذا يعني النظر إلى البنى المحلية القمعية والتأثير الضار للنزاعات الدولية: ليس أقلها الضرر الذي حصل نتيجة «الحرب على الإرهاب» ذاتها. هنالك ميل متأصل في مكافحة الإرهاب، مثلما هي الحال في مجال الإغاثة من المجاعة (المختلف اختلافا بينا)، للتركيز على مجموعة مستهدفة دون اعتبار للعمليات والأنساق التي وصل عبرها الناس إلى مثل هذه الحالة المتطرفة[113].

من أجل فهم عملية التشكل والصيرورة نحن بحاجة إلى إحساس بالتاريخ على المستويين الفردي والوطني، إضافة إلى معرفة تأثير الغرب في المشكلة. لكن مثل هذا الحس والمعرفة غائبان عموما، خصوصا في الولايات المتحدة. الرئيس بوش عبر عن ذلك بأسلوب ينضح بالثقة بالنفس حين قال: «أعتقد أننا متفقون على أن الماضي قد انتهى»[114]. وعندما يتعلق الأمر بالتاريخ، فإن الكلمة ذاتها تستخدم مرارا في الولايات المتحدة لتعني أن شيئا أو شخصا قد مات أو لم يعد ذا صلة. في الوقت ذاته، فإن التاريخ كثيرا ما يتحول إلى ميدان للنرجسية: خصوصا بالنسبة

لبوش وبلير كليهما، اللذين يستحضران «التاريخ» غالبا للإشارة والتلميح إلى الطريقة التي سيحكم فيها على اللاعبين الرئيسين (من أمثال بوش وبلير) في المستقبل. على سبيل المثال، قال بوش في المقدمة التمهيدية لاستراتيجية الأمن الوطني (2002 /9/ 17 التاريخ): «سيحكم بقسوة على أولئك الذين شاهدوا هذا الخطر القادم دون أن يفعلوا شيئا إزاءه»[115]. وأبلغ بلير الكونغرس الأمريكي، قائلا: إذا ارتكب خطأ في تقييم قدرات صدام في مجال أسلحة الدمار الشامل «فإن ذلك شيء أثق بأن التاريخ سوف يصفح عنه»[116]. ولاحظت وزيرة التنمية الدولية السابقة في الحكومة البريطانية، كلير شورت، أن بلير متهوس بهاجس ميراثه الخاص[117].

حقيقة أن مكافحة الإرهاب تقرر بشكل حاسم قوة التهديد الإرهابي ربما فاتت على بوش، لكنها لم تفشل في جذب انتباه الإرهابيين. ومثلما قال توماس فريدمان، فإن الإرهابيين الإسلاميين «يريدون تحريض الولايات المتحدة على اللجوء إلى رد عسكري كاسح لا يفرق بينهم وبين المسلمين الآخرين. ذلك سيكون نصرهم النهائي ـ لأنهم يرون العالم على شكل صراع بين الحضارات، ويريدون من كل مسلم رؤية العالم من هذا المنظور والانضمام إلى جهادهم»[118].

بغض النظر عن تأثير استخدام العنف في مكافحة الإرهاب في دفع الناس إلى التطرف، فإن بيانات وتصريحات بوش شجعت أيضا سياسة الاستقطاب. فقد قال عبارته المشهورة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر: «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا في الحرب على الإرهاب»[119]. ويبدو أن القصد من العبارة تملق الحياديين وحثهم على دعم «الحرب على الإرهاب». لكن بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون أن يكونوا «مع» السيد بوش في سبيله الذي اختاره، فإن المنطق المنحرف والضمني للتعليمات التي أصدرها يعني: انضموا إلى صفوف الإرهابيين.

شعر الكثيرون بالارتياح طبعا لسقوط الطالبان وصدام. لكن رد بوش/ بلير ولَّد غضبا عارما داخل وخارج البلدان المستهدفة المختارة. دعونا نتناول أولا حالة أولئك الموجودين داخل هذه البلدان.

الغضب في البلدان المستهدفة

على الصعيد النظري، توجب على القوات العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة للرد على هجمات الحادي عشر من سبتمبر أن تميز بدقة بين الأشرار والأخيار: يجب أن يكون القصف موجها لأهداف محددة، وينبغي على الحكومات الشريرة أن تسقط، وأن توفر الحماية للناس العاديين من الحرب بواسطة المعونات الإنسانية. لكن تظهر هنا أربع مشكلات على الأقل، جميعها تلهب الغضب على التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة.

أولا، من الصعب حتما تطبيق مثل مشروع «الفصل» هذا على صعيد الممارسة العملية: فالقنابل لا تعثر دوما على أهدافها، والفوضى تصيب الاقتصاد بصورة يتعذر تجنبها، ويجبر المدنيون على النزوح..

الهجوم على أفغانستان أدى إلى نزوح حوالي 500 ألف لاجئ[120]، وانقطاع المعونات الإنسانية مدة ثلاثة أشهر سبب العديد من الوفيات[121]. وحتى بعد انهيار الطالبان، عرقل اللصوص وقطاع الطرق وتداعي سلطة القانون توزيع المعونات[122]. ويقدر عدد المدنيين الأفغان الذين قتلوا نتيجة العمل العسكري الأمريكي (منذ بدء الهجوم في تشرين الأول/ أكتوبر 2001 وحتى نهاية شهر آذار/ مارس 2002) بحوالي 340 [123] وقد تم القصف من ارتفاعات عالية من أجل تجنب الخسائر الأمريكية في الأرواح، ونجح من هذه الناحية: بحلول العاشر من كانون الثاني/ يناير لم تتجاوز الخسائر الأمريكية في الأرواح رجلين اثنين سقطا بنيران معادية[124]. أما أكثر تقديرات وزارة الدفاع الأمريكية تفاؤلا فأكدت أن نسبة 85% من القنابل الأمريكية

أصابت أهدافها. لكن ذلك يعني ضمنا أن نسبة 15% ـ أي 450 قنبلة أو أكثر ـ قد ضلت أهدافها[125]. واعترفت الولايات المتحدة بأنها أسقطت قنبلتين وزن الواحدة 225 كغ فوق منطقة سكنية إلى الشمال من كابول[126]. وقال الناطق باسم البحرية إن 60% من القنابل التي سقطت على أفغانستان كانت من القنابل الذكية، رغم أن معظمها كانت أصلا «غبية» تحولت إلى ذكية بإضافة زعنفة ذيل موجهة بالأقمار الصناعية[127]. واستمرت عمليات القتل في أفغانستان حتى بعد أن بهتت التغطية الإخبارية. على سبيل المثال، قتل أحد عشر مدنيا في باكتيكا (شرق أفغانستان) في العاشر من أبريل 2003، بعد أن أسقطت طائرة حربية أمريكية بطريق الخطأ قنبلة موجهة بالليزر فوق أحد المنازل. ولا ريب أن مثل هذه الحوادث تؤدي إلى استعداء السكان المحليين.

بين آذار/ مارس وأيلول/ سبتمبر 2002، عاد حوالي 1، 7مليون لاجئ إلى أفغانستان. لكن الافتقار إلى التمويل الضروري لإعادة الإعمار عنى أن يجد العديد منهم البقاء صعبا أو مستحيلا، واضطر بعضهم للعودة من حيث أتوا. فقد استخدمت معظم الأموال المخصصة لإعادة الإعمار للنازحين داخل أفغانستان بسبب الاضطرابات الإثنية في الشمال والجفاف المنتشر على نطاق واسع[128]. وفي شباط/ فبراير 2003، وصف أحد الصحفيين الزائرين البلد بأنه في حالة من «البؤس المطلق والفقر المدقع»، وأضاف إن «نصف المليارات الثلاثة من الجنيهات [التي خصصتها الأمم المتحدة لإعادة الإعمار] قد أنفق، رغم زعم الحكومة الأفغانية بأنها لم تتلق سوى جزء من المبلغ». صحيح أن عددا كبيرا من الوكالات كانت تعمل في البلاد لكن «مع بعض الاستثناءات الملحوظة، يصعب تمييز ما حققته من إنجازات». فقد كان عشرات الألوف من اللاجئين يعيشون في خرائب دمرتها القنابل. بينما لم يتجاوز عدد الجيش الأفغاني 4000، أي حوالي واحد من عشرين من العدد المقترح. «حالما ينضم بعض الجنود الجدد إلى التدريب براتب لا يتجاوز

عشرين جنيها في الشهر ـ إذا تلقوا مثل هذا الراتب أصلا ـ فإن آخرين يشعرون بالحنين إلى قراهم البعيدة، وسرعان ما يتركون الجيش»[129]. وفي أيار/ مايو 2003، كانت الألغام أو القنابل التي لم تنفجر تقتل عددا يتراوح بين 100–150 أفغانيا في الشهر[130].

المشكلة الثانية تتمثل في أن المشروع الدولي المعلن لفصل الخير عن الشر (غير الواقعي أصلا) أصبح أكثر بعدا عن الواقع نتيجة الحوافز والبواعث ذات الصلة التي تدفع الأشرار في بلاد «العدو» لـ«تعكير صفو الماء»، أي الاختلاط مع المدنيين. فمدفعية الطالبان كانت ملاصقة أحيانا للمساجد والمدارس[131] ـ وهي عادة موروثة تعود في جزء منها على الأقل إلى الحكومة القديمة المدعومة من قبل السوفييت، حيث اعتادت وضع المنشآت والمرافق العسكرية في المناطق الحضرية لحمايتها من هجمات المجاهدين[132] في العراق، ذكر الجنود أن بعض رجال المقاومة يرتدون ثيابا مدنية[133]، واشتكى شون هيوز، جندي المشاة التابع لفرقة المارينز الأولى (2003) من أن:

> الموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه ـ مقاتلة عدو يستخدم النساء والأطفال وغيرهم من المدنيين كدروع بشرية؛ الأمر الذي يجبرنا على الاختيار بين إطلاق النار على «أهداف المنطقة» (تعبير مهذب يعني إطلاق النار على الحشود من المدنيين) أو التعرض للقتل على أيدي «أولاد الزنا» الذين يستخدمون الحشود كحماية لهم ـ هذا الموقف مرعب إلى حد ينأى عن الوصف. رأيت العديد من جثث الأطفال مبعثرة في شوارع الناصرية (جنوب العراق) إلى جانب عدد لا يحصى من جثث المدنيين الآخرين[134].

المشكلة الثالثة هي أن الخسائر بين المدنيين شجعت المقاومة حتما، الأمر الذي أدى إلى سقوط المزيد من الضحايا المدنيين. مجلة «نيوزويك» أجرت في صيف عام

2003 مقابلة مع ثلاثة من مقاتلي المقاومة العراقية، ولاحظت «أن المقاتلين قادرون على ما يبدو على التحرك بشكل علني في العامرية [على بعد حوالي 30 ميلا إلى الشرق من بغداد] دون خوف من أن يبلغ أحد الأمريكان عنهم»[135]. وأضاف مقاتلو المقاومة أن لديهم حوالي خمسة آلاف مقاتل مسلح، وأن الغضب يملأ صدورهم على القوات الأمريكية بسبب وفاة ثمانية عشر رجلا وطفلا كانوا يحتجون (في 4/ 29/ 2003) على احتلال مدرستهم الابتدائية في الفلوجة. كانت تلك حادثة غيرت النظرة إلى الجنود الأمريكيين وأصبحوا معرضين للتهديد والخطر بعد أن كانوا في وضع آمن نسبيا في الفلوجة وغيرها من المدن الواقعة شمالي بغداد [136]وزعمت الولايات المتحدة أن جنودها كانوا يردون على مسلحين بين الحشد، لكن منظمة حقوق الإنسان لم تعثر على «دليل دامغ» لآثار طلقات الرصاص يثبت تعرض المدرسة التي يتمركز فيها الجنود الأمريكيون لإطلاق النار[137]. وحين قتل أربعة من المتعاقدين الأمنيين ومثل بجثثهم في الفلوجة (31/ 3/ 2004) كان رد المارينز على المدينة ساحقا ماحقا، حيث قتلوا عددا يتراوح بين 600–700 شخص. وزعمت القيادة الأمريكية أن جميع القتلى عبارة عن أهداف مشروعة، لكن الأطباء المحليين أكدوا أن معظم القتلى كانوا من النساء والأطفال والشيوخ. ثم شنت القوات التي تقودها الولايات المتحدة هجوما ثانيا على المدينة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004، وبعد أسبوع من الحصار قدر مراسل لهيئة الإذاعة البريطانية عدد القتلى بألفي شخص. كما دمر حوالي 36 ألف منزل في المدينة المنكوبة[138].

انتهاكات وتجاوزات المحققين كانت منتشرة على أوسع نطاق في أفغانستان، حيث لم يكن للعديد من المعتقلين صلات يمكن إثباتها بأي منظمة محظورة. ولجأ المسؤولون الأمريكيون إلى تعذيب السجناء لا في «أبو غريب» (في العراق) فقط، بل في باغرام (في أفغانستان) وغوانتانامو (في كوبا)[139]وكانت وكالة المخابرات المركزية تنقل المشتبه بهم بالطائرات إلى سجون في مصر والأردن وسورية حيث

يتعرضون للتعذيب[140]. وفي العراق، طالت الاعتقالات المتمردين وغير المتمردين على حد سواء؛ لتحاكي الاختيار العشوائي للعراق كهدف في البداية. وفي اعتراف يثير القلق، قدر ضباط الاستخبارات العسكرية في قوات التحالف أن نسبة تتراوح بين 70-90% من أولئك الذين حرموا من حريتهم في العراق قد اعتقلوا خطأ[141] أما مارك دانر فعلق قائلا: إنه نظرا للحاجة الماسة للاستخبارات الجيدة، فإن «اعتقال وسجن آلاف المدنيين بواسطة عمليات اقتحام جرى تعريفها بأسلوب مشبوه بأنها ـ تطويق واعتقال ـ ، يمثلان تكتيكا فاضحا يهزم ذاته بذاته»[142] لقد جرى توثيق حالات سوء المعاملة بعد الاعتقال في العديد من مناطق العراق من قبل اللجنة الدولية للصليب الأحمر[143] ومع ارتفاع الخسائر البشرية في صفوف قوات التحالف، ازداد الضغط من أجل «تحطيم» إرادة السجناء واستخلاص المعلومات منهم[144] وحتى قبل تفجر فضيحة «أبو غريب»، أوردت مجلة «نيوزويك» ما يأتي:

اختفى حوالي 8 آلاف شخص منذ انهيار نظام صدام، والعديد من أقرباء هؤلاء يبحثون عن أجوبة حول مصيرهم. هنالك أكثر من خمسة آلاف شخص رهن الاعتقال في السجون الأمريكية.. وأولئك الذين اعتقلوا يعيشون في عزلة تامة، ولا يحق لهم طلب محامين أو الاتصال بأسرهم. وفي معظم الحالات لا يعرف أقرباؤهم أين هم.. الظروف بدائية.. والعقوبة المعتادة والمتكررة إجبار السجين على الركوع تحت أشعة الشمس اللاهبة حيث تتجاوز الحرارة 50 مئوية. أما الذين يخضعون للاستجواب فهم عرضة للحرمان من النوم، والموسيقى الصاخبة، وغير ذلك من الأساليب التي يعتقد العسكر أنها لا تنحدر إلى درك التعذيب. بل إن السلطات تعتقل زوجة المشتبه به وأطفاله كرهائن حتى يسلم نفسه، وهذا ما يفعله.. ويقول أحد أعضاء وفد الصليب الأحمر [عن السلطات الأمريكية]: «ما تفعله غير قانوني على الإطلاق، وهي تعلم ذلك»[145].

أججت هذه الفظائع ـ خصوصا تلك التي ارتكبت في «أبو غريب» ـ مشاعر الغضب في العديد من البلدان العربية والإسلامية، علاوة على أنها شجعت عددا كبيرا من الشباب على حمل السلاح في مختلف أرجاء الحزام السني في العراق[146] وفي بعض الأحيان أضفت الأعمال الوحشية التي ارتكبتها الجماعات المسلحة داخل العراق نوعا من الإثارة الدرامية على الصلات الرابطة بالانتهاكات الأمريكية: فقد قطعت رؤوس عدد من الرهائن وهم يرتدون اللباس البرتقالي المميز للمعتقلين في غوانتانامو. وبدا أن «أبو غريب» على وجه الخصوص يؤكد دعاية المتطرفين التي صورت العالم الغربي في حالة مزرية من الفسق والانحلال الجنسي. والأهم أن العار قد تجاوز بمراحل أولئك الذين تعرضوا للإذلال المباشر. فبعد تفجر فضيحة «أبو غريب»، قالت امرأة عراقية في منتصف العشرينات من العمر تعيش في بغداد، على موقعها الإلكتروني المعروف باسم «ريفربند»: «نحن نحترق من شدة العار والغضب والإحباط؛ لأننا لا نستطيع أن نفعل شيئا»[147] وعلق أحد المواطنين العراقيين (في نيسان/ أبريل 2004) قائلا: «كل من لا يقاتل لن يستطيع أن يزيل وصمة العار عن وجهه لأجيال وأجيال»[148] وتحدث قائد شاب من قادة التمرد السني عن مشاعره بعد غزو العراق، فقال:

> تجولت في الشوارع حاملا خنجرا في جيبي. خجلت من العودة إلى منزلي ورؤية عائلتي بينما بغداد ترزح تحت الاحتلال. الجثث وظروف الطلقات مبعثرة في كل مكان.. حين يحتل الكافر وطنك، تشعر وكأن امرأتك تغتصب أمام عينيك، أو كأنما دينك يهان كل يوم[149].

علقت سيلا الورثي في معرض إشارتها إلى «صدمة الاحتلال» قائلة: «في الثقافات التي يتعمق فيها مفهوم الشرف، فإن أولئك الذين يمارسون الإذلال ويجردون البشر من صفاتهم الإنسانية يعرضون أنفسهم للخطر»[150] وأبلغ شاب في الفلوجة الصحفي مارك دانر (في تشرين الثاني/ نوفمبر 2003) أنه:

بالنسبة لأهل الفلوجة، فإن من العار أن يحطم الغرباء الأجانب أبوابهم. ومن العار أن يوقف الغرباء نساءهم ويفتشونهن. ومن العار أن يضع الغرباء كيسا فوق رؤوسهم، ويجبروا الرجل على الانبطاح أرضا والحذاء العسكري فوق عنقه. إنه عار كبير، أتعلم ذلك؟ عار على العشيرة كلها. ومن واجب ذلك الرجل، وتلك العشيرة، الثأر من هذا الجندي ـ وقتله. واجبهم مهاجمة الجنود لغسل العار. العار لطخة، بقعة قذرة؛ وعلى أهالي الفلوجة غسلها. لا نوم ـ لا يمكن أن يغمض لنا جفن قبل أن نثأر. علينا أن نقتل هؤلاء الجنود[151]

المشكلة الرابعة في المشروع المعلن الهادف إلى فصل المجال «العسكري» عن «الإنساني» هي أن التحالف بقيادة الولايات المتحدة تعرض مرارا لإغراء استغلال المشروع الإنساني لتعزيز وتقوية المشروع العسكري (مما عزر بدوره تصميم بعض العناصر المحلية على عرقلة المشروع الإنساني). إن مصداقية مشروع الولايات المتحدة «الإنساني» لم تدعمها الأفعال التي قامت بها الولايات المتحدة أو امتنعت عن القيام بها سابقا. فقد تراجع الاهتمام الغربي بأفغانستان في التسعينيات مع نهاية الاحتلال السوفييتي ثم نهوض حركة طالبان. وجرى إهمال الاحتياجات الإنسانية بصورة حادة، وبحلول منتصف عام 2001، انتشرت المجاعة على نطاق واسع، حيث قدر حجم العجز في الغذاء بأكثر من مليون طن[152]. وفي العراق أدت العقوبات الدولية في التسعينيات إلى مقتل 500 ألف طفل تحت عمر الخامسة [153]. وفي حين أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر حررت الموارد الإنسانية، إلا أن من الصعب تجاهل الدوافع العسكرية والسياسية.

حاول بوش وبلير استخدام المعونات الإنسانية لإظهار أنهما معاديان للنظامين الأفغاني والعراقي فقط، في حين أن نواياهما حسنة تجاه المدنيين. لكن الوفيات بين المدنيين كانت مؤكدة: على الأقل بسبب تكتيك القصف الجوي من ارتفاعات عالية.

وتوجب العثور على طريقة لتغطية القتل. ومثلما قال بوش حين خطط للحرب الأفغانية: «هل يمكن أن نجعل القنابل الأولى التي نسقطها أطعمة وأغذية؟»[154] بعض هذه المعونات أسقطت بالفعل من طائرات تحلق على ارتفاعات عالية، ولربما عرضت المتلقين لأخطار الألغام الأرضية[155]. ويبدو أن معظم وسائل الإعلام الأمريكية قد اعتنقت بكل حماس هذه المقاربة القائمة على «الغذاء مقابل الدم» («سنطعمك بقدر ما تنزف!»). لكن فكرة أن الناس سيبادلونك الحب؛ لأنك تسقط عليهم الطعام مع القنابل ربما تكون فكرة غريبة؛ التوازي ليس دقيقا، وليس واضحا تماما. على سبيل المثال، هل كان الأمريكيون سيسامحون ابن لادن على تدمير مركز التجارة العالمي لو قرر أن يسقط في الوقت ذاته رزم الأطعمة على المشردين في شيكاغو!؟[156].

في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 2001، أبلغ بوش مستشاري الأمن المقربين في مجلس الأمن القومي، قائلا:

> نحن بحاجة إلى حملة علاقات عامة تركز على الطالبان. نحن بحاجة إلى مؤتمر للمانحين [مؤتمر للبلدان المانحة للمعونات الغذائية]، إلى من يقوم بتنظيم ذلك كتعويض لشهر رمضان [الذي سيبدأ في منتصف تشرين الثاني /نوفمبر] نحن بحاجة ـ لأن نعطي التحالف شيئا [مشجبا] يعلق قبعته عليه حين نتابع القصف خلال رمضان. نحن بحاجة إلى تقديم معونة إنسانية خلال رمضان، معونة لم يعرف الأفغان مثيلا لها من قبل. نحن بحاجة أيضا إلى مبادرة سياسية في هذه المدة[157].

ومع التخطيط للقصف خلال شهر رمضان، أضاف بوش ملاحظة لها حساسية ثقافية: يجب على الولايات المتحدة تخفيف حدة القصف خلال أوقات الصلاة[158].

كان بوش مستعدا لتوسيع مدى هذه «الحساسية». ففي لقاء لمجلس الأمن القومي عقد في الثالث والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، قال: «نحن بحاجة إلى مؤتمر لمانحي المعونات الإنسانية مع اقتراب شهر رمضان. ويجب أن نطلب من طالبان أن تسمح للشاحنات بالعبور. وإذا لم يفعلوا ذلك فهم ينتهكون مبادئ الإسلام»[159].

في أفغانستان، لم تكن المعونات الغذائية مفيدة في شرعنة العنف فقط، بل في تغطية المهمات العسكرية: وهو غرض مزدوج خدمته المعونات الإنسانية في الصراعات السابقة في نيجيريا وأثيوبيا والسودان[160]. في السادس من تشرين/ أكتوبر 2001، عقد لقاء في مجلس الأمن القومي، اتصل فيه المؤتمرون بواسطة جهاز الفيديو مع بوش في منتجع كامب ديفيد. وأعرب وزير الدفاع رمسفيلد عن قلقه من أن القاذفات ستشاهد وهي تغادر ميسوري، ونظرا لأن رحلتها إلى أفغانستان ستستغرق خمس عشرة ساعة أو أكثر، فقد يستفيد العدو من هذا التحذير المبكر الثمين من الهجوم الوشيك. فرد بوش: «دعها تقلع. وحاول التضليل بتقديم معلومات خاطئة». فأجاب رمسفيلد «لسوف نخبر الناس بأنها محملة بالأغذية»[161]وعلى الأرض، سرعان ما سيربط الجنود الأمريكيون توزيع الإغاثة بتقديم معلومات حول الطالبان و«القاعدة»[162].

يبدو أن إبهام الخطوط الفاصلة بين «الأجندات» العسكرية والإنسانية قد شوَّش وأربك بعض اللاعبين الرئيسين الذين يشتبهون ـ فطريا ـ بالاندفاع المتعجل إلى الحرب على العراق. تتذكر كلير شورت، أشهر منتقدي مقاربة بلير لهذه الحرب، أنها تشبثت ـ رغم ذلك ـ بمنصبها كوزيرة للتنمية الدولية خلال الهجوم على العراق ـ لأنها شعرت بالحاجة إليها لقيادة الجهد البريطاني في مجالي المعونات الإنسانية وإعادة الإعمار[163].

أدى ربط العمليات الإنسانية بالأجندات السياسية إلى مشكلات كبرى بالنسبة للمنظمات الأهلية (NGOs) إذا لم تقبل منظمة «أطباء بلا حدود» التمويل من حلف

الناتو، الأمر الذي ساعدها على العمل، في حين أن العديد من المنظمات الإنسانية الأخرى في أفغانستان كانت تتلقى التمويل من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID)وتريد أن تبدو حيادية[164]. وبالرغم من موقف منظمة «أطباء بلا حدود»، إلا أن الطالبان أعلنوا مسؤوليتهم عن قتل خمسة من العاملين فيها (حزيران/ يونيو 2004)، وذكر ناطق باسمهم أن «العاملين في الإغاثة الدولية يعملون لصالح السياسة الأمريكية»[165]. وفي تموز/ يوليو 2004، أعلنت المنظمة انسحابها من أفغانستان بعد أن عملت هناك طيلة 24 سنة[166].

قال بوش: إن المعونات الإنسانية إلى العراق تمثل «فرصة لتغيير صورة الولايات المتحدة»[167]، في حين دعا وزير الخارجية (آنذاك) كولين باول المنظمات الأهلية (غير الحكومية) للعمل «كقوة تضاعف قوتنا.. كجزء مهم من فريقنا المحارب»[168] وعلق الصحفي بيتر سوثارد، الذي أمضى ثلاثين يوما مع بلير (بدءا من 30/ 3/ 2003) خلال أزمة العراق، بالقول: «يفضل نواب حزب العمال ـ خطة كوفي عنان ـ وعبارة ـ من الأفضل استخدام خطة كوفي ـ تعني أن من الأفضل لنا إبهام هذا الجزء من التخطيط العسكري تحت غطاء جيد من هراء المعونات الإنسانية»[169] وسرعان ما أصبح العاملون في المنظمات التابعة للأمم المتحدة والمنظمات الأهلية هدفا مكشوفا في العراق المحتل. وشملت الفظائع التي ارتكبت بحقهم اختطاف وقتل مارغريت حسن مديرة منظمة «كير» الدولية في العراق. وانتشر إدراك واسع النطاق بأن جميع المعونات المقدمة إلى العراق هي جزء من الأجندة السياسية الأمريكية[170].

الغضب خارج البلدان المستهدفة

فاقمت «الحرب على الإرهاب» مشاعر الغضب، خصوصا بين المسلمين، خارج أفغانستان والعراق. وكررت الحكومتان الأمريكية والبريطانية مرارا التشديد على

أنهما لا تستهدفان المسلمين ككل. لكن من بين الستة والعشرين بلدا التي يشكل مواطنوها خطرا أمنيا متصاعدا داخل الولايات المتحدة تبعا لقائمة أعدتها وزارة الخارجية الأمريكية، هناك خمسة وعشرون بلدا إسلاميا (إضافة إلى كوريا الشمالية)[171]. كيف يبدو لك الأمر إن كنت مسلما؟ يمكن للتأثيرات الجانبية للعنف أن تكون واسعة المدى. على سبيل المثال، يبدو أن الهجوم على أفغانستان قد أثار وهيج الصراعات في فلسطين وكشمير (حيث نقلت الهند جنودها إلى حدود الإقليم الذي تتنازع عليه مع باكستان)[172].

وانصب الغضب على أبطال «الحرب على الإرهاب» في الغرب، وعلى الأنظمة المتواطئة مع الغرب في هذه «الحرب». وفي الحقيقة، كثيرا ما كانت «الحرب على الإرهاب» تعني «إضافة» العداء للغرب والولايات المتحدة إلى العداء للحكومات المحلية.

الغضب على الغرب

لا يجب الاستخفاف بقوة أولئك الذين يستخدمون الإرهاب ضد حكوماتهم، ولا بحماس وغلو إيديولوجيتهم المناهضة لأمريكا. أشار مايكل مان إلى أن ـ «القاعدة ـ تتألف من العرب المنفيين العاجزين عن مواجهة أنظمة الحكم في أوطانهم»[173]علاوة على أن العديد من أولئك الذين وضعتهم الولايات المتحدة في سلة «القاعدة» هم بالأصل جهاديون وطنيون (لا عالميون) (أتوا من الشيشان وكشمير وباكستان وإندونيسيا..). ويطرح مان سؤالا وجيها: «لماذا يعتبر هؤلاء الإرهابيون الوطنيون أنفسهم أعداء للولايات المتحدة؟»[174]. ويختتم بالقول: «لقد استعدى الجهاديون الكثيرين بسبب عنفهم المتطرف، كما فعلوا في التسعينيات في الجزائر ومصر. ولا ريب في أن الإسلاميين والجهاديين يعانيان من حالة انحطاط وتراجع منذ منتصف التسعينيات. لكن أعمال وأفعال الولايات المتحدة هي التي بدأت بإحيائهما»[175].

في إندونيسيا، حتى بعد الهجوم على أفغانستان، ذكر 61% من أولئك الذين اُستطلعت آراؤهم أنهم ينظرون إلى الولايات المتحدة باستحسان، لكن بحلول آب/ أغسطس 2004، (بعد الهجوم على العراق)، انخفضت النسبة إلى[176] 15% لقد أججت الحرب على العراق المشاعر المعادية للولايات المتحدة في مختلف أنحاء العالمين العربي والإسلامي[177]. وعلق فيرغال كين، الصحفي الذي تنقل في شتى أرجاء العالم، على حرب العراق بالقول: «إذا كانت هناك أغلبية ـ أو حتى أقلية ـ عربية صامتة تعتقد بأن هذه الحرب أمر جيد، فإنني لم أعثر عليها بعد»[178] «فلا شيء يمكن أن تفعله أمريكا ويزود ـ القاعدة ـ وجيلها الجديد من الجماعات المستنسخة عنها بأداة تجنيد وحشد أفضل من غزونا لقطر عربي ـ غني بالنفط، دون استفزاز يدفعنا لذلك"، حسبما لاحظ كبير خبراء مكافحة الإرهاب في الولايات المتحدة ريتشارد كلارك[179].

من الطبيعي أن تحفز أعمال الإرهاب ردة فعل تعبر عن الذهول والرعب: «لماذا يرتكب شخص مثل هذا العمل بحق السماء؟». العجز عن الفهم أمر إجباري تقريبا. لكننا نعرف الآن الكثير عن كيفية تشكل الإرهابي والدور الذي تلعبه أحداث العالم في هذه العملية. ويبدو أن اضطرابات الشخصية لم تعد أكثر شيوعا بين الإرهابيين مقارنة بغير الإرهابيين[180] فكل ما نعرفه يشير بدلالته إلى أن انتهاكات القوة الأمريكية (بما فيها الهجمات على أفغانستان والعراق) قد ساعدت على دفع عدد كبير من الناس إلى طريق الغضب والعداء الذي قد يؤدي إلى إنتاج الإرهابيين[181]. الاحتلال الروسي لأفغانستان شكل نقطة مرجعية لإنتاج المقاومة، ومن ثم الإرهاب.

تعززت هذه العملية الآن، بعد أن أصبحت التدخلات العسكرية تُرى على نحو متزايد من خلال موشور وسائل الإعلام الخاضعة للسيطرة المحلية. إذ وفرت قناة «الجزيرة» (التي يقدر عدد مشاهديها بخمسة وثلاثين مليونا حتى قبل حرب عام

2003) بديلا معقولا ومقبولا لتغطية «سي. إن. إن» للصراعات الدولية، وخلال الهجوم على العراق (2003) عرضت «الجزيرة» مقاطع فلمية مصورة للخسائر العراقية عدة مرات كل ساعة[182]. وبعد تفجر فضيحة «أبو غريب»، كررت الفضائيات العربية عرض الصور كل بضع دقائق. أما قوة الحشد والتعبئة الكامنة في الصور، فتشير إليها تكتيكات الجماعات المتطرفة: على سبيل المثال، استخدم المتطرفون أحيانا في مسجد فينزبري في لندن مقاطع مصورة للانتهاكات التي ترتكب بحق المسلمين (بما فيها تلك التي ارتكبت ضدهم في البوسنة) لتعزيز ولاء أتباعهم، بل إعدادهم للقتال.

وبالطبع لا تنطلق حروب مكافحة الإرهاب الحالية من فراغ: فهي تأتي في سياق التجربة التاريخية للاستعمار وحالة الإذلال المؤسس في البلدان العربية والإسلامية. لقد صاغت التجربة الكولونيالية المدركات ليس في الشرق الأوسط فقط، بل في إندونيسيا وماليزيا والفليبين أيضا. وتبدى جزء من إذلال الاستعمار هذا حين قسم الغرب الأمة الإسلامية إلى دول[183] ويلاحظ برنارد لويس أن «المسلمين.. لا يميلون إلى رؤية أمة مقسمة إلى جماعات دينية، بل دين مقسم إلى دول»[184]ولم يحل الاستقلال المشكلة بالضرورة: على سبيل المثال، اعتبر المفكر الإسلامي المصري المتطرف سيد قطب القومية بمثابة اغتصاب لسلطان الله وحاكميته، حيث نظرت بإجلال وإكبار إلى الأمة والشعب بدلا من الله وحده[185].

شدد الإرهابيون مرارا وتكرارا على الإذلال (الذي تتعرض له الأمة) باعتباره ظلما يريدون رفعه. وأشار ابن لادن في شريط مصور (2001 /10 /7) إلى «الإذلال والخزي» اللذين عانى منهما الإسلام «لأكثر من ثمانين سنة»[186] ويبدو أن المدة تبدأ مع انحطاط وسقوط السلطنة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وفي معرض إشارته إلى الإرهابيين الذين قتلوا 24 أمريكيا في السعودية في عامي 1995و1996، قال: إنهم غسلوا جزءا كبيرا من العار الذي يلف الأمة[187] وقالت

جيسيكا ستيرن بعد أن أجرت بحثا حول الإرهابيين من مختلف الأديان: «في حين أن الإرهابيين الذين قابلتهم وصفوا تشكيلة متنوعة من المظالم والشكاوى، إلا أنهم تحدثوا جميعا عن الإذلال»[188]. وبينما يعتبر الإسلام غالبا ـ خصوصا في الغرب ـ دينا يشرعن رد الفعل العنيف على المظالم والإذلال، إلا أن من الممكن اعتباره أيضا دينا يخفف حدة رد الفعل هذا. وعلق فؤاد نهدي (ناشر المجلة الإسلامية Q-News) قائلا: «لقد كان إذلال العالم العربي أسوأ مما تعرض له الألمان. والحمد لله لم نشاهد هتلر في العالم العربي، بسبب الإسلام غالبا»[189].

بدا الهجوم على العراق (2003) بالنسبة للعديد من سكان المنطقة وخارجها استعمارا جديدا. وكلما طالت مدة بقاء قوات التحالف، كلما تأكد هذا الانطباع. وفي حين أن رحيل صدام أدى إلى شعور واسع النطاق بالارتياح في العراق والكويت على وجه الخصوص، إلا أن توكيد قوة الغرب واستمرار الاحتلال أعادا نكأ العديد من الجراح التاريخية في العالم العربي: ليس أقلها الهزيمة المذلة لمصر وسورية والأردن في حرب عام 1967 مع إسرائيل، التي أدت إلى احتلالها لشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان. علق هاني شكر الله مدير تحرير «الأهرام الأسبوعي» بالقول:

> إن الإحساس بالهزيمة الذي ولد في يونيو 1967 ربما كان أشد ما حطم الآمال الكبرى للتحرر والانعتاق واستعادة الكرامة الوطنية التي أطلقتها موجة القومية العربية التي تزعمتها ورمزت لها قيادة عبد الناصر[190].

وارتبط بذلك بالطبع الغضب الواسع النطاق على الانتهاكات التي ترتكبها إسرائيل بحق الفلسطينيين، خصوصا وأنها تحظى بدعم قوي من قبل الولايات المتحدة ـ غضب يتراكم كل يوم نتيجة الاحباطات التي تسببها الأنظمة القمعية في العالم العربي. وكثيرا ما ساوى المتطرفون الإسلاميون بين احتلال الولايات المتحدة للعراق وبين سياسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين[191].

علق رجل من أسرة ظلت أجيالا ترعى مرقدا إسلاميا قديما في كربلاء قائلا: «إذا قارنتم بين البلدين [العراق والولايات المتحدة]تجدون قوة أمريكا أكبر.. لكن الله أكبر منها»[192]. وبعد أن لاحظ هاني شكر الله الحماس الذي استقبل به خبر إسقاط عجوز عراقي مروحية أمريكية من طراز أباتشي خلال مرحلة "القتال الرئيس" من الحرب العراقية، أشار إلى أن مثل هذه المقاومة أعطت الكثيرين في العالم العربي شعورا بالفخر والإنسانية:

> بالنسبة للعرب، فإن الشعور بالكرامة الجريحة بكل ما فيه من غيظ ومذلة ومرارة، كان وما يزال يسبب عجزا ويوجد حالة ذهنية تبدو فيها الخيارات محصورة بين الانتقام الانتحاري والخضوع الذليل واليأس المرير. وليس من المعروف حتى الآن هل ستضع الحرب في العراق الجماهير العربية على مسار جديد، مسار يدفعها للقتال حتى النصر بدلا من الموت في سبيل الحفاظ على الإحساس بشيء من الكرامة الإنسانية الأساسية. لكن بغض النظر عن المسار الذي ستتخذه الحرب في الأيام أو الأسابيع القادمة، فإن الجماهير العربية تؤمن بشيئين اثنين: هي ليست فئران وليست لوحدها[193].

لكن أي شعور بالقوة والتمكين سرعان ما يزول في وجه القوة الساحقة للولايات المتحدة. لقد اتخذ الإذلال خلال الحرب أشكالا عديدة. ففي نيسان/ أبريل 2003، لاحظ جوناثان ستيل كبير صحفيي «الغارديان» أنه شاهد في الأردن «الكثيرين يستشهدون بصورة نشرتها عدة صحف على صدر صفحاتها الأولى وجدوا فيها رمزا فاضحا وصادقا للاحتلال الذي يلوح في الأفق. الصورة تظهر ثلاث نساء عراقيات يرتدين عباءات سوداء ويخضعن لتفتيش جسدي من قبل جندي أمريكي»[194]. وعلق الشيخ خالد الجندي، وهو إمام مسجد معتدل في القاهرة، بالقول:

«معظم الصور التي رأيناها تظهر رؤوسا لعراقيين تطأها أحذية الجنود الأمريكيين. لم يعد الأمر مجرد احتلال بل إذلال»[195]. وفاقمت الفظائع المرتكبة في «أبو غريب» طبعا الشعور بالمهانة والمذلة. ولاحظ موسدا موليا، وهو عالم تقدمي في إندونيسيا، أن «المعتدلين يجدون صعوبة أكبر في مناقشة قضايا مثل حقوق الإنسان والديمقراطية بينما يتواصل ظهور صور الأمريكيين وهم يعذبون العراقيين»[196].

أفرزت فظائع الحادي عشر من سبتمبر حاجة للرد العنيف وهذا أمر طبيعي تماما. أما ظاهرة «القتل لمسح دموعي» ـ أو مبدأ «فلتبك جميع الأمهات ما عدا أمي» ـ فهي مألوفة لدى علماء الإنثروبولوجيا[197]. لقد شهد الحادي عشر من سبتمبر ذبح آلاف الأبرياء بدم بارد، وفي حين أن بعض الأمريكيين طالبوا بضبط النفس (بمن فيهم العديد من أقارب الضحايا)[198]، إلا أن العديد من الشخصيات العامة ومسؤولي الحكومة ومراسلي وسائل الإعلام شددوا على ضرورة أن ترد الولايات المتحدة بتوجيه ضربات عسكرية. لكن هذا الدافع الانتقامي بالضبط هو الذي يجب أن يظهر لنا لماذا يستحيل الانتصار في «الحرب على الإرهاب»[199]. فلماذا لا يحس الآخرون بالمشاعر والبواعث المألوفة حين يتعرضون «هم» للهجوم، حين يقصف الأبرياء منهم بالقنابل أو يطلق عليهم الرصاص باسم «عدالة» غيرهم؟

وبالإضافة إلى هذا كله، إذا أعلن مرارا وتكرارا أن «الحرب على الإرهاب» سوف تجعل العالم أكثر أمنا (كما فعلت الحكومتان الأمريكية والبريطانية)، ألا يعزز ذلك الرسالة القائلة إنك تؤمن بأن ضحاياك ـ هنالك على الدوام ضحايا أبرياء ـ ليسوا مثلك، وليس لديهم مشاعرك ذاتها، بما فيها الرغبة البشرية بالرد والانتقام؟ بالنسبة لضحاياك، تبدو ثقتك بعنفك دليلا يؤكد عنصريتك ويثبت فشلك في الاعتراف بإنسانيتهم. ومن المفارقة أن أولئك الذين تعرضوا مرارا للإهانة والإذلال والتجريد من الصفات الإنسانية بشكل منهجي ومنظم ربما يطالبون بالثأر لتذكير أنفسهم وتذكير مضطهديهم بأنهم بشر («لا فئران»)، وأنهم موجودون[200]. يصعب

فهم هذه الآلية لأن الأعمال الانتقامية «الوحشية» هذه ـ كما تتضمنها الصفة ـ تجعل مرتكبيها يبدون ـ بشكل يتعذر تجنبه ـ أقل من مستوى البشر.

في مسرحية شكسبير الشهيرة «تاجر البندقية»، يشرح شايلوك رغبته اللاإنسانية بتشويه جسد أنطونيو (الذي استدان منه المال) واقتطاع جزء من لحمه، باعتبارها تمظهرا لإنسانيته في سياق جرَّدهُ فيه الآخرون من صفاته الإنسانية:

> لقد أهانني.. وضحك على خسائري.. ولماذا؟ أنا يهودي. أليس لليهودي عينان؟ أليس لليهودي يدان؟ وأعضاء، وأبعاد، وحواس، ومشاعر، وعواطف؟.. إذا وخزتنا، ألا ننزف؟ إذا دغدغتنا ألا نضحك؟ إذا وضعت السم لنا ألا نموت؟ وإذا أخطأت معنا، ألا ننتقم؟

يمكن التعرف على مشاعر مشابهة بين المتمردين المشاركين في الحروب الأهلية. فخلال الحرب التي شهدتها سيراليون، ذكر المنشور السياسي للجبهة المتحدة الثورية أن الحكومة العسكرية «تتصرف وكأننا غرباء حقراء قادمون من كوكب آخر لا من سيراليون»[201]. والأهم أن الجبهة بعد الانقلاب الذي قام به الجيش والمتمردون معا (أيار/ مايو 1997) أصدرت «اعتذارا إلى الأمة»، ذكرت فيه «إننا لم نتمرد على الوضع القائم لرغبتنا بأن نكون برابرة، أو مجردين عن الإنسانية، بل لأننا أردنا أن نؤكد إنسانيتنا»[202]. وفي هذه الأثناء، انضم الجنود التابعون إلى الحكومة على نحو متزايد إلى المتمردين ليصبحوا «جنودا ـ متمردين». مرة أخرى، وعلى مستوى الإرهاب العالمي، تساءل بيان منسوب إلى ابن لادن: تبعا لأي مبدأ تعتبر ضحاياكم أبرياء وضحايانا تراب، و«بحسب أي مبدأ يعتبر دمكم دما ودمنا ماء؟»[203]. في أفغانستان، قال حاجي محمد زمان وهو قائد عسكري موال للغرب: «لماذا يقصفون المدنيين؟ هذا أمر سيئ. المئات قتلوا وجرحوا. إنها جريمة ضد الإنسانية. ألسنا بشرا؟»[204].

في حين يقدم شايلوك انتقامه العنيف كتمظهر لإنسانيته، فهو مستعد أيضا لتبني الشخصية اللاإنسانية التي حمل عبئها: «أنت تنعتني بالكلب قبل أن يكون لديك سبب؛ لكن بما أنني كلب، حاذر من أنيابي». من الصور المقززة الملتقطة في سجن «أبو غريب» واحدة تظهر سجينا يجر بواسطة طوق يستخدم للكلاب. ومن الصعب تخيل صورة أكثر إذلالا وتجريدا من الصفات الإنسانية ـ وتحريضا وإثارة للمشاعر ـ منها.

يمكن لأبلسة الناس ومعاملتهم كأطفال قصَّر ممارسة التأثير ذاته الذي يخلفه تجريدهم من صفاتهم الإنسانية. وهذا جزء من المشكلة المصاحبة لعبارات تصنيفية مثل «محور الشر». في نيسان/ أبريل 2002، تحدت كوريا الشمالية ـ عمليا ـ بوش للتوقف عن اعتبارها جزءا من «محور الشر»، حيث وافقت على استئناف الحوار مع الولايات المتحدة بشرط عدم «شتمها» والافتراء عليها مرة أخرى[205]. وحاول بوش أيضا معاملة الزعيم الكوري الشمالي كيم جونغ إيل كطفل قاصر، وذلك عبر الإشارة إليه بوصفه «قزما» و«طفلا أفسده الدلال يجلس على مائدة العشاء»[206].

أشار فرانتز فانون، الطبيب النفساني الذي ولد في جزيرة مارتينيك الفرنسية في البحر الكاريبي، ثم عمل في مشفى جزائري خلال حرب التحرير، أشار إلى الشعور بعدم الوجود بين أولئك الخاضعين لسلطة الاستعمار، نتيجة عدم معاملتهم كبشر. أما الحل الراديكالي فقد قدمه في كتابه «المعذبون في الأرض» (نشر أول مرة عام 1961): «على مستوى الأفراد، يعتبر العنف قوة تطهيرية. فهو يحرر أهالي البلد المستعمر من عقدتهم الدونية ومن يأسهم وعطالتهم، ويجعلهم شجعان جسورين ويعيد لهم احترامهم لذاتهم»[207]. لا ينبغي علينا الموافقة على هذا الخط من التفكير أو العمل لنرى مدى ما يتمتع به من منطق نفسي. وفكرة أن بإمكان العنف التخفيف من حدة الشعور بعدم الوجود عرضتها أيضا هانا إرندت في كتابها «أصول

التوتاليتارية» (نشر عام 1951)، حيث تشدد على اختلاف ما دعته بـ«الإرهاب التوتاليتاري» عن الإرهاب الثوري السابق:

لم يعد الأمر يتعلق بسياسة محسوبة ترى في الأعمال الإرهابية الوسيلة الوحيدة للقضاء على الشخصيات البارزة، التي أصبحت رمزا للقمع والاضطهاد بسبب سياستها أو مواقفها. وما ثبتت جاذبيته أن الإرهاب أصبح نوعا من الفلسفة التي يمكن بواسطتها التعبير عن الإحباط، والاستياء، والكراهية العمياء، نوعا من التعبيرية السياسية التي تستخدم القنابل للتعبير عن ذاتها، التي تراقب ببهجة الدعاية المصاحبة للأعمال المدوية، وتكون على أتم الاستعداد للتضحية بالحياة من أجل النجاح في فرض الاعتراف بالوجود على الطبقة العادية من المجتمع.. ما أراده الغوغاء، وما عبرت عنه دعاية غوبلز بدقة بالغة، هو الوصول إلى التاريخ، حتى لو كان الثمن خرابا ودمارا[208].

لن تكون بعض التنويعات على فكرة «الشعور بعدم الوجود» التي قدمها فانون مفاجئة في الحالة الفلسطينية، حيث أكدت رئيسة وزراء إسرائيل السابقة غولدا مائير عام 1969 على أنه «لا يوجد شيء اسمه الشعب الفلسطيني.. فنحن لم نأت ونطردهم ونأخذ بلادهم. فهم غير موجودين»[209]. فكرة مشابهة عبر عنها الشعار الأقدم السيئ الذكر الذي نحته الكاتب إسرائيل زانغويل عام 1901 فيما يتعلق بما يوجد الآن في إسرائيل: «أرض بدون شعب لشعب بدون أرض».

في بعض السياقات الاجتماعية، قد تسبغ المشاركة في الإرهاب الشرف والمجد والتكريم على الإرهابي وعائلته. وهذه هي الحالة السائدة غالبا في فلسطين[210] وفي باكستان، يشارك الآلاف في تشجيع أي فتى «يستشهد» في هجوم إرهابي في كشمير. وقال والد واحد من هؤلاء «الشهداء»: إن العائلات الفقيرة تصبح شهيرة حين تفقد أبناءها، ويعاملها الجميع بمزيد من الاحترام[211].

إذا كان فانون قد فهم كيف يغذي الإذلال العنف، فإن الطبيب النفساني الأمريكي جيمس غيليغان (الذي سنقدم عنه المزيد في الفصل الرابع) ومارك يورغنزماير (في كتابه: Terror in the Mind of God) هما اللذان استكشفا هذه الآلية. إذ لاحظ يورغنزماير أنه بالنسبة لطيف واسع من الإرهابيين الدينيين (بمن فيهم أعضاء منظمة «حماس» الفلسطينية شبه العسكرية)، يبدو أن محو العار والذل يحتل أهمية محورية[211]. وتابع قائلا: «لا أعتقد أن اليأس الاقتصادي أو الاجتماعي يؤدي آليا إلى العنف، نظرا لأن كل إنسان على الأرض قد عانى من نوع من المشقة الاقتصادية والاجتماعية في حياته»[213]. أما العامل الأهم فهو كما يستنتج في دراسات الحالة:

> الألفة مع الإذلال التي يعاني منها المرء والدرجة التي تعتبر عندها تهديدا للشرف والاحترام على الصعيد الشخصي. ويمكن لذلك كله أن يوجد الشروط اللازمة للحاجة الملحة للتمكين، الذي يعبر عنه بشكل رمزي وعنيف حين يبدو أفق البدائل الأخرى مسدودا[214]

إن الدعوة إلى الحقوق التي لا تؤيدها فعلا ظلت منذ أمد بعيد مصدرا للغضب والعنف. فهمت هانا أرندت أن الغضب يأتي من النفاق لا من مجرد الظلم[215]. وعلى نحو مشابه إلى حد ما، استنتجت إيفلين لندنر ـ التي عملت مستشارة نفسية في ألمانيا والشرق الأوسط وأجرت أبحاثا حول الإذلال والعنف في الصومال ورواندا وبوروندي، أن:

> الحرمان بحد ذاته لا يعتبر بالضرورة شكلا من أشكال المعاناة التي تستدعي العمل والتحرك. لكن الحرمان الذي يعتبر انتهاكا غير مشروع لمُثل المساواة والكرامة هو الذي يعد إذلالا يجب الرد عليه بكل إخلاص.. تنطلق مشاعر الإذلال حين يعتبر هؤلاء الذين يبشرون بحقوق الإنسان

وبضم كل إنسان داخل الفئة العالمية «نحن» ـ كثيرا ما يشار إليهم باسم الغرب ـ منتهكين في الوقت ذاته لما يدعون إليه. وهو ما يسمى بـ«ازدواجية المعايير»[216].

مرة أخرى نشير إلى أن «ازدواجية المعايير» هذه تقوم على فكرة أن الضحايا لا يعتبرون كلية من البشر. فبرغم كل شيء، إذا كانت حقوق الإنسان موجودة ويجري التبشير بها، ومع ذلك تتعرض جماعة معينة لسوء المعاملة، ألا يستتبع ذلك أن النظام يسمُ ضمنا أفرادها بأنهم ليسوا من البشر؟[217]. وما هي الخلاصة التي يمكن استنتاجها منطقيا من البيانات والتصريحات والإعلانات التي تؤكد أن للبشر حقوقا وحقيقة سجن أفراد من البشر في عزلة تامة وإلى أجل غير مسمى في أقفاص داخل غوانتانامو وغيرها من معسكرات الاعتقال؟ حين عبر عفيف صافية (ممثل السلطة الفلسطينية في بريطانيا) عن غضبه على لامبالاة الحكومة الإسرائيلية بالضحايا الفلسطينيين، قال: «أنا لا أنتمي إلى فصيلة لها أطفال ربهم أدنى مرتبة»[218].

يمكن لأبلسة العدو أيضا أن تفرز نتائج عكسية تتمثل في جعله أكثر جاذبية وإغراء. فقد زادت «الحرب على الإرهاب» بشكل واضح جاذبية وسحر وغموض شخصية ابن لادن. وذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» أن «الصراع في أفغانستان ثبت على ما يبدو ابن لادن كبطل شعبي»[219]. وليس ثمة شك في أنه يحظى بالإعجاب والتقدير لدى العديد من الناس في العالم العربي والإسلامي[220]. على سبيل المثال، تبين أن نسبة المتعاطفين مع أهداف ابن لادن بلغت 49% من السكان، وذلك وفقا لاستطلاع أجري في السعودية عام 2004 [221] ويعتقد العديد من مسؤولي الحكومة البريطانية، بمن فيهم عدد من كبار الشخصيات العسكرية، أن أبلسة أمريكا لابن لادن قد شجعت بمرور السنين العديد من الناس في العالم العربي على اعتباره رمزا[222].

وصف المؤرخ البريطاني أريك هوبزبوم، في تاريخه الوجيز، لكن المتخم بالرؤى الثاقبة لعصابات قطاع الطرق، وصف الخط الرفيع الفاصل بين المجرمين و«الثوار الاجتماعيين» (على طريقة روبن هود) الذين تعتبر جرائمهم ضربات موجهة ضد النظام السائد. وأشار إلى فئة من قطاع الطرق أطلق على أفرادها اسم «المنتقمون». وهؤلاء يرتكبون أعمالا إرهابية مشهودة، ضد المتسلطين غالبا (لكن ليس دائما)، ويثبتون كما لاحظ هوبزبوم أن «بمقدور الفقراء والضعفاء أن يكونوا مرعبين»[223]. وبالطبع لم يكن ابن لادن فقيرا، لكن الكثيرين ما يزالون يعتبرونه رمزا لقوة الضعفاء السياسية. صدام حسين كان شخصية أخرى اجتذبت الأتباع والأنصار في الشرق الأوسط وذلك حين وقف بطريقة لافتة في وجه الولايات المتحدة رغم ضعفه: فقد كانت مكانته كـ«بطل» بالنسبة لبعض الناس على الأقل أقوى بما يكفي حتى للتغاضي عن الانتهاكات التي ارتكبها بحق الآلاف من الضحايا ــ وجلهم من المسلمين ــ داخل العراق.

وعلى طريقة الحكومات الاستعمارية وغيرها من الأنظمة القمعية في الماضي، سعت الحكومة الأمريكية إلى تعليق التمرد في العراق على مشجب «العناصر الخارجية». وفي حين أن ذلك يقلل بشكل خطير من أهمية الأغلبية العراقية في المقاومة، إلا أن العراق أصبح فعلا قطبا جاذبا للمقاتلين من بلدان أخرى في الشرق الأوسط. وأتاح فرصة للمقاتلين والمتشددين للإفلات من ترصد حكوماتهم، وخوض الجهاد ضد أهداف يمكن تحديدها والوصول إليها. لقد اعتقلت القوات الأمريكية في العراق مصريين وفلسطينيين وتونسيين ويمنيين ولبنانيين. وشوهد سلفيون سنة (يتبعون مذهب ابن لادن) في الفلوجة، كما ذكر الجيش البريطاني أن مسلمين شيعة من حزب الله اللبناني يمارسون نشاطهم في البصرة. في حين قال المنشق السعودي المقيم في لندن سعد الفقيه: إن المساعي الرامية لاتخاذ إجراءات صارمة ضد الإرهاب في السعودية قد تدفع الجهاديين عبر الحدود إلى العراق: «إذا لم يعد أمام

الشباب من خيار سوى السجن في زنزانة صغيرة والتعرض للتعذيب أو الفرار إلى العراق، فإن خيار العراق هو المفضل. لأنه مكان مثالي وفيه عدو مثالي»[224].

العملية التي جري بواسطتها دفع الناس إلى التطرف إلى درجة التحول إلى إرهابيين اختلفت باختلاف البلدان؛ لكن يبدو أن هناك قواسم مشتركة. فكثيرا ما تفاعل الغضب على الظلم في مجتمع الوطن مع الغضب على الأحداث الدولية. ومن أولئك الذين شعروا بالغضب على المظالم في الوطن الجيل الأول والثاني من المهاجرين في المجتمعات الغربية. وأدت «الحرب على الإرهاب» إلى تعميق هذا الغضب المزدوج: لا بسبب زيادة المظالم والشكاوى من السياسة الخارجية الغربية فقط، بل نتيجة تفاقم القمع الداخلي في العديد من بلدان العالم، وتنامي التمييز العنصري، وانتشار الأحكام المتحيزة ضد المسلمين في الغرب. في الولايات المتحدة على وجه الخصوص، تمثل جزء من ردة الفعل على الحادي عشر من سبتمبر في تزايد الاشتباه بـ«العدو الداخلي» (انظر الفصل 9). ومن المهم فهم العوامل التي تشجع المسلمين في الغرب على رؤية أنفسهم كجزء من المجتمعات الغربية أو كأجانب غرباء عنها. مثل هذه العوامل ـ لا سيما التفاعل بين الغضب على المجتمع والغضب على الأحداث الدولية ـ تتضح في حالة زكريا الموسوي (الذي أدين أخيرا بجرم مساعدة «القاعدة» على تنفيذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر). والقصة التي يرويها شقيقه عبد الصمد تستحق أن نعرضها بشيء من التفصيل[225].

لم تظهر أي علامات تدل على «الشر» على زكريا حين كان صبيا. ويصف عبد الصمد شقيقه الأصغر بأنه «أخ مثالي. كان ذكيا، أريبا ولطيفا». ولد الاثنان في فرنسا لأبوين مهاجرين من المغرب. ثم انفصل الزوجان فوضعتهما الأم في ملجأ للأيتام. وبعد ذلك انضم الشابان إلى عصابة في منطقة سكنية في ناربون (جنوب فرنسا)، كانت تتنافس مع عصابة أخرى في المنطقة المجاورة، سكانها كلهم تقريبا من البيض. عقد زكريا صداقات مع بعض الطلاب المنتمين إلى الطبقة الوسطى في

المدرسة الثانوية، لكنه طلب أن ينتقل إلى مدرسة مهنية، ليصبح ميكانيكيا. ويعلق عبد الصمد قائلا: «أدركت أنه يفتقد الثقة بالنفس بسبب جذوره الاجتماعية. ابن شغالة مغربية تعمل في التنظيف وسط أبناء مدراء الشركات!؟ وهكذا ترك مدرسته وانضم إلي في الكلية المهنية. ولم يدرك أبدا أنه ارتكب خطأ». انتقلت أم الطفلين وزوجها الجديد إلى منطقة راقية في ناربون: «كنا العائلة الوحيدة القادمة من شمال أفريقيا في المنطقة. وتنقلنا من بركة سباحة إلى أخرى، وجربنا لعب التنس، بل حتى ركوب الخيل.. بفضل زكريا الذي نال القبول بسرعة في هذا الوسط». لكن عبد الصمد تذكر أن العائلة انسلخت عن ثقافة شمال أفريقيا:

> لم تستخدم عائشة [والدة الصبيين] العربية في الكلام معنا أبدا. لذلك شعرنا بوجود تحيز ضدنا حتى وسط الجالية القادمة من شمال أفريقيا، لأننا لم نكن نتحدث لغتها.. ولم تعلمنا العادات العربية أو الثقافة الإسلامية. سألتها أنا وزكريا عدة مرات كيف تصلين ولماذا. كنت في الخامسة والعشرين عندما دخلت المسجد أول مرة في مونبيليه. وأعتقد أن أول مسجد دخله زكريا كان في بريطانيا (بعد أن بلغ سن الرشد)[226].

ولم يشعر الصبيان بأنهما مقبولان في الغرب أيضا ـ فقد «علق» الاثنان بين عالمين: «لم نشعر بأننا فرنسيان، وكنا ندرك ذلك كلما واجهنا التمييز العنصري». في المدرسة، سئل الصبيان مرارا وتكرارا: لماذا لا يأكلان لحم الخنزير؟. وحين يجيبان لأنهما مسلمان، يكون الرد كما يتذكر عبد الصمد: «ولماذا بحق السماء لا تكونون أنتم المسلمون كبقية الناس؟». كان لزكريا صديقة بيضاء. ودخل في شجار ذات مرة في أحد النوادي، وحين كان يتعرض للضرب سمع أحدهم يقول: «طفح الكيل مع هؤلاء الزنوج! فهم يأخذون حتى نساءنا». بالطبع لا يختار كل شخص الرد على هذه الحوادث بالعنف؛ وفي الحقيقة، فإن رواية عبد الصمد تدل على أن ردة

فعل الشقيقين كانت مختلفة اختلافا بينا تجاه الظروف ذاتها: «حين كان زكريا يواجه الإذلال، كانت ردة فعله تختلف عن ردة فعلي. حيث اعتاد أن ينعزل عن الآخرين ليبقى وحيدا مع معاناته، يكابد ألمها الممض بصمت». وجد عبد الصمد شقيقه يصاب بالإحباط بسرعة عند البحث عن عمل، ويتعجل الاشتباه بالعنصرية حين يتعرض للرفض. لكن العنصرية حقيقة واقعة، كما يتذكر، وبعض أرباب العمل قالوا بصراحة: «نحن لا نريد عربا هنا».

يبدو أن حرب الخليج عام 1991 شكلت عاملا مهما في دفع زكريا الموسوي نحو مزيد من التطرف. ففي ذلك الحين كان يدرس الهندسة في بيربنيان بجنوب فرنسا. وخلال الحرب، انقسم الطلاب بين مؤيد ومعارض للأمريكان ـ أو برأي عبد الصمد بين أولئك الذين هللوا للقصف وأولئك «الذين تأثروا بمحنة المدنيين العراقيين». ويتذكر: «شعرنا أن فرنسا التي أرسلت جنودا للقتال إلى جانب الأمريكان لم تكن فرنسا التي نعرفها. أعتقد أن زكريا بدأ يشعر في تلك اللحظة بأنه ينتمي إلى السود، في حين ينتمي الفرنسيون إلى البيض». أصبح لزكريا أصدقاء جدد. ونادرا ما قضى وقتا مع شخص ولد وترعرع في فرنسا، وتبنى أصدقاؤه الجدد موقفا متمردا: «كانوا يسخرون دائما وأبدا من السياسيين والمفكرين ـ خصوصا الفرنسيين منهم».

بعد ذلك التحق زكريا بجامعة «ساوث بانك» في لندن. وقال: إن الإنكليز متسامحون على السطح فقط. وكان عبد الصمد قد بدأ ممارسة شعائر الإسلام، لكن زكريا لم يظهر أي اهتمام. إذ أراد أن يصبح غنيا وطلب من صديقته أن تذهب إلى إنكلترا معه. يتذكر عبد الصمد: «أصيب بجرح عميق حين رفضت اللحاق به». وقالت شقيقتهما: إن زكريا أتى إليها ليقول: «عبد الصمد وفوزية [زوجته]يمارسان ـ التواصل ـ، وهذا كفر. حاذري منهما، لكن لا تقولي لهما شيئا» (يشمل التواصل في الإسلام السني الدعاء لله بشفاعة النبي أو أحد الأولياء. لكن المذهب الوهابي،

وهو حركة سنية إصلاحية ظهرت في الجزيرة العربية، يرفض الشفاعة باعتبارها بدعة). سمع عبد الصمد أن شقيقه تصرف بشكل غريب خلال زيارة قام بها إلى المغرب: «اعتبر كل ما يراه حراما، لكنه بدا متناقضا. فقد كان يحرم على الآخرين التدخين ثم يذهب إلى ركن في الشارع ويدخن لفافة»[227].

يصف عبد الصمد الأساليب التجنيدية للمتطرفين، فيقول:

«المجنِّدون» يتبعون بشكل ثابت الطريقة ذاتها. فقبل كل شيء ينتقون الشباب الذين تركوا عائلاتهم، الركائز الأخلاقية والمعنوية المتينة التي يجسدها الأب والأم والأخوة والأخوات، وحتى الأصدقاء.

وبعد قضاء عدة شهور مع إحدى الجماعات المتطرفة، يصبح المجنَّد جاهزا للتدريب في أحد المعسكرات:

ما إن يصل إلى المعسكر حتى يصبح من السهل دفعه ليفقد حس الاتجاه، مثلما يحدث في أي طائفة دينية. فهو يتعرض للتجويع، والتصغير، والتوكيل بالقيام بمهمات لا يقدر على استكمالها، لكن يقال له: إن آخرين نجحوا في إنجازها وانتقلوا إلى أداء مهمات أعظم.

ويعلق عبد الصمد:

ولأنه «عاجز»، فإن الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يساعد به القضية هو تقديم حياته فداء لها. وهذا سيثبت للآخرين أيضا أنه كان في النهاية على مستوى توقعاتهم. فهو جاهز الآن للعمليات الانتحارية[228].

تظهر قصة زكريا الموسوي كيف يمكن لفرد أن ينقلب ضد الغرب حين يتغذى الإحساس بالانجذاب إلى الأساليب الغربية على أزمة الهوية. فالكراهية المجردة لا تمثل القصة برمتها. والطريقة التي يمكن فيها للعداء للغرب على وجه

الخصوص أن يتعايش مع الانجذاب إلى الثقافة الغربية لاحظها المراسل الصحفي جون بيرنز في مقالة تميزت بالبصيرة الثاقبة كتبها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بقليل:

> حين بدأ الطالبان حكمهم لأفغانستان عام 1996 بتعليق أجهزة التلفاز على الأشجار وتحريم الموسيقى والأفلام، كانوا على الحافة القصوى لشعور بالقلق ينتشر على نطاق واسع في المجتمعات التقليدية، التي أخذت تشعر بأن طوفان الثقافة الغربية، خصوصا الأمريكية، يكتسحها[229].

إن جاذبية أمريكا ـ والطوابير الطويلة من طالبي تأشيرات الدخول أمام السفارات الأمريكية ـ وجدت نقيضها في المشاعر المعادية لأمريكا، في الإحباط الناجم عن الرفض، في الاستياء الناتج غالبا عن الظروف القاسية في الولايات المتحدة ذاتها:

> في المناقشات مع المتطرفين الإسلاميين، كثيرا ما كان الغضب على إسرائيل، أو بسبب ما يجري في العراق، أو البوسنة، يفيض ليشمل رواية تجارب شخصية، تافهة حينا، ومهمة أحيانا، لتهيج فيها المواجهة مع أمريكا ـ العمل في وظيفة وضيعة، أو الدراسة في الولايات المتحدة، أو مقابلة مخيبة للآمال مع سلطات الهجرة ـ مشاعر الاستياء والحنق وتطلق مشاعر العداء والعداوة[230].

يقدم الكاتب جوناثان رابان وصفا لسلالة من الفكر الإرهابي اتسم بردة فعله العنيفة على الانحلال الغربي الذي ثبتت قدرته الهائلة على الإغراء[231]. والأدلة التي تثبت تعرض بعض الإرهابيين لإغراء «الانحلال الغربي» كثيرة ووفيرة. على سبيل المثال، اعتاد خالد شيخ محمد (الكويتي الأصل الذي قيل: إنه الرجل الثالث في «القاعدة»، واعتقل في راولبندي في أوائل عام 2001) زيارة حي الدعارة في

مانيلا حين كان يعيش في الفليبين، واشتهر بأنه زير نساء[232]. أما زياد الجراح، الذي قاد إحدى الطائرات المختطفة وأسقطها فوق بنسلفانيا في الحادي عشر من سبتمبر، فكان شخصية اجتماعية ومغرما بالحفلات في لبنان[233]. ولربما تثير جاذبية "الحياة الراقية" مشاعر الاستياء والسخط بصورة مباشرة: علق فتى فلسطيني في السابعة عشر من العمر حاول تنفيذ عملية انتحارية وفشل، علق قائلا: «حياتنا لا قيمة لها.. بينما يتمتع الإسرائيليون بحياتهم. فهم يخرجون للسهر في الليل، وعندهم مقاه ومراقص. ويسافرون في مختلف أنحاء العالم. يذهبون إلى أمريكا وبريطانيا. ونحن لا نستطيع حتى مغادرة فلسطين»[234].

حين أجرى يورغنزماير مقابلة مع محمود أبو حليمة، وهو مصري وأحد المدانين بتفجير مركز التجارة العالمية عام 1993، شدد أبو حليمة على الطبيعة المخادعة للعديد من السياسيين المعاصرين الذين يدعون الإسلام لكنهم يتبعون قواعد السلوك العلمانية[235]. في عام 1981، حين اعتقل الرئيس المصري أنور السادات الناشطين الإسلاميين من أمثال أبو حليمة، قرر الشاب الذهاب إلى ألمانيا بواسطة تأشيرة دخول سياحية. وهناك تزوج من ممرضة ألمانية، وحين انفصلا، تزوج بأخرى. وخلال سنواته الأولى في ألمانيا، عاش أبو حليمة كما يتذكر «حياة فساد ولهو.. فتيات، مخدرات، وما شئت من موبقات». ثم «مارس شعائر الإسلام ـ الصلاة والصوم ـ لكنه ترك الإسلام الحقيقي وراءه». وبعد ذلك «أحس بالملل» وعاد للالتزام بدينه. واعتنقت زوجته (الثانية) الإسلام[236]. وفي عام 1988 انضم إلى الجهاد في أفغانستان، رغم أنه لم يشارك في مهمات عسكرية كما زعم[237].

يوضح تحليل أجراه الصحفي المتمرس معروف خواجه بعض الضغوط التي تنشأ نتيجة المطالب المتعارضة من الشباب المسلم، خصوصا في الغرب. ويلاحظ أن الإسلام يطالبهم بممارسة الشعائر والتضحية، ويكتشف في بريطانيا:

هوة تتسع بين الأجيال داخل العائلات المسلمة ـ تمظهرت في فقد الأهل زمام السيطرة وتدهور المرجعية الأخلاقية لكبار السن في الأسرة، وفي فرض قيود صارمة (خصوصا على الفتيات).. فالشباب المسلمون، برغم كل شيء، يريدون أن يحاكوا أصدقاءهم العلمانيين ـ السهر خارج المنزل، والذهاب إلى النوادي، ومصاحبة الفتيات والفتيان.. فهم يشعرون بالامتعاض والاستياء من حقيقة أن البيت المسلم التقليدي يعتبر كل ما يجتذبهم ـ موسيقى، ورقص، وتلفاز، حتى العديد من أنواع الهوايات والرياضات ـ من المحرمات، والخطايا والذنوب الكبرى التي تعد شيطانية[238].

تختلف ردود أفعال الناس على هذه العمليات والأنساق اختلافا كبيرا. لكن بالنسبة لأقلية ضئيلة يبدو الرفض العنيف لكل ما هو غربي خيارا جذابا[239]

حبك مختلف المظالم معا

تميل إدارة بوش إلى التشديد على أن الإرهابيين الدوليين «يكرهون أمريكا» و«يكرهون حريتنا». ورأينا كيف أججت أفعال الحكومة الأمريكية مشاعر الغضب ونوازع الإرهاب، لكن هناك عاملا آخر من النرجسية المعكوسة في تحليل «إنهم يكرهوننا». فالعديد من مظالم وشكاوى الإرهابيين كانت موجهة ـ تاريخيا ـ نحو الأنظمة المحلية. ثم تحولت جهة الولايات المتحدة وأفعالها: أولا، لأنها كثيرا ما تدعم الأنظمة اللاديمقراطية واللاشعبية؛ وثانيا، لأنها شجعت مؤخرا على دمج مختلف المظالم تحت مظلة إيديولوجية مناهضة لأمريكا أو معادية للغرب. وفي الحقيقة، لعبت «الحرب على الإرهاب» دورا مفتاحيا في تجميع وحبك مختلف المظالم المنوعة ضمن «أجندة» معادية لأمريكا. وحتى في غرب أفريقيا يعبر السكان المسلمون عن معارضة متزايدة لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، إضافة إلى تنامي

التبشير الأصولي[240]. وفي الواقع استغلت «القاعدة» سلسلة من الصراعات المحلية أساسا ـ بما فيها استخدام الإرهاب من قبل الجماعات الإسلامية ضد حكوماتها ـ في الفليبين وأوزبكستان والجزائر على سبيل المثال. كما منحت «الحرب على الإرهاب» رخصة إضافية للقمع الداخلي، ومثلما أشارت مجلة «تايم» فإن أحد العوامل التي ضاعفت من حدة إرهاب المتطرفين الإسلاميين معارضة الإجراءات القمعية التي اتخذتها الحكومات (في باكستان ومصر وغيرهما) ضد الجهادية الإسلامية[241].

يشدد هوغ روبرتس على أن «القاعدة» عبارة عن تركيبة تجمع بين الوهابية (ابن لادن وصحبه) والتطرف المصري (ممثلا بأيمن الظواهري)، مع اعتناق الجناحين مؤخرا مبدأ العداء لأمريكا. إذ ركز المتطرفون المصريون عداءهم ـ تقليديا ـ على الحكومة المصرية. ومن جانبه، كان ابن لادن متحالفا مع الأمريكان ضد الاحتلال السوفييتي لأفغانستان، وركزت الوهابية على الأعداء من غير الأمريكيين، ولم تتخذ موقفا مناهضا لأمريكا إلا بعد زيادة الوجود العسكري للولايات المتحدة في السعودية خلال وبعد حرب الخليج الأولى 1991)[242].

يؤكد هوغ روبرتس على أن الجهاديين الجزائريين حين كانوا يستهدفون الأجانب لم يجدوا أمامهم سوى الفرنسيين ـ خصوصا في المدة الممتدة بين عامي 1993-1996. وعكس هذا الاختيار للهدف التجربة الكولونيالية، والمعارضة الفرنسية للتحرر من الاستعمار، والتدخل السافر للحكومات الفرنسية في السياسة الجزائرية منذ الثمانينيات. ولم توجه الهجمات التي تستهدف الأجانب ضد الأمريكان. لكن العداء للسياسات الأمريكية يكتسب قاعدة قوية في الجزائر (كما في تونس والمغرب حيث ظلت فرنسا تمثل العدو التقليدي)؛ فـ«الجماعة السلفية للدعوة والقتال» في الجزائر لها روابط مع «القاعدة» وإيديولوجيتها المناهضة لأمريكا تزداد قوة وحدة.

ومن العوامل المفتاحية في نهوض التطرف (العنفي واللاعنفي) في الجزائر، كما يشير روبرتس، تدمير السلطة المرجعية (الأخلاقية والفكرية والاجتماعية) للعلماء المسلمين، وعودة المتطرفين إلى التفسير المتخلف والرجعي للإسلام. العامل الثاني ـ كما في مصر والسعودية ـ هو السياسة الخارجية للولايات المتحدة، خصوصا الحرب على العراق. والأهم أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر والحرب على الإرهاب نفختا روحا جديدة في الحملة العسكرية المحلية التي دخلت طور الذبول والتراجع. فبحلول ربيع عام 2001، دخل العسكر في الجزائر قفص الاتهام بسبب ما ارتكبوه من انتهاكات. ويقدم روبرتس الحجة على أن الحاجة الأكثر إلحاحا في الجزائر هي إقامة دولة (ومن ضمنها الجيش) تلتزم بحكم القانون. لكن مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر تمكن الجيش الجزائري من ضمان إعادة التأهيل وكأنما يقول للأمريكان: «شكرا لكم للانضمام إلينا أخيرا في الحرب على الإرهاب!». في الوقت ذاته، ساعدت على إعادة تأهيل الدولة الجزائرية مبادرة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في إحالة الجنرالات الذين ارتبطوا بـ«الحرب القذرة» في التسعينيات على التقاعد[243].

في أفغانستان أيضا، لم تكن مشاعر العداء لأمريكا أصيلة أو راسخة الجذور. ويلاحظ جيسون بيرك أن «الطالبان كانوا يحاذرون من ابن لادن وعقيدته المتشددة التي تسعى لتدويل الجهاد. فقد كان مشروعهم محصورا ضمن أفغانستان ولم يضمروا أي سوء نية تجاه أمريكا أو الغرب». لكن ذلك كله قد تغير الآن[244].

في دراسة مهمة تتفق مع تحليل روبرتس وبيرك، يلاحظ فواز جرجس أن الحركات الجهادية نزعت إلى التركيز على استهداف «العدو القريب» (الأنظمة الحاكمة في الجزائر ومصر وغيرهما) لا «العدو البعيد» (الولايات المتحدة والبلدان الغربية الحليفة). وكانت هذه الحركات عموما تعاني من حالة تراجع وانحطاط طيلة التسعينيات: فقد نأى المسلمون العاديون عن أساليبها المتطرفة وغلوها، إضافة إلى

أن الأجهزة الأمنية الوطنية قد أضعفت الجهاديين الذين كانوا أيضا يعانون من المصاعب المالية والانقسامات الداخلية. ومثل تركيز «القاعدة» على مهاجمة أمريكا، من نواح عديدة، محاولة يائسة لإحياء الحركات الجهادية التي فترت همتها وتراجع نشاطها من خلال استفزاز الولايات المتحدة للرد، وذلك مع فشل الظواهري في إقناع كبار القادة الجهاديين بأن من الحكمة تركيز الهجمات على «العدو البعيد». لم تكن سلطة ابن لادن مطلقة بأي حال من الأحوال، رغم أن تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر قد ركز عليه تركيزا شديدا. لكن الرد الانتقامي الذي قادته الولايات المتحدة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر ـ والحرب على العراق على وجه الخصوص ـ نجح في تحقيق ما أمل به ابن لادن[245]. ومثلما قال القائد الميداني لـ«القاعدة» سيف العدل: «ابتلع الأمريكيون الطعم وسقطوا في الفخ الذي نصبناه لهم»[246].

في الفليبين، تلقى المتطرفون الإسلاميون دفعة تشجيعية إلى الأمام نتيجة «الحرب على الإرهاب»، مثلما يبين جيمس بوتزيل[247]. وبالرغم من تشهير الولايات المتحدة بزعيم حركة التمرد الإسلامية «أبو سياف»، إلا أن الأزمة في الفليبين بالغة التعقيد، ولا يمكن اختزالها في نطاق بضعة إرهابيين «أشرار». إذ شجعت الحكومة إعادة الاستيطان الجماعي وذلك استجابة للضغط على الأراضي في المناطق الزراعية الخصبة، وردا على المتمردين من الفلاحين. وانخفضت نسبة السكان المسلمين في ميندناو (الذين شكلوا نسبة 76% من السكان عام 1903) إلى 20%. ووجد المسلمون في ميندناو وأرخبيل سولو أنفسهم أقلية دائمة، مع تراجع احتمال انتشالهم من هوة الفقر بالوسائل الديمقراطية. وفي سبيل المحافظة على سيطرتها على ميندناو، كما يشير بوتزل، اعتمدت الدولة على نخبة المستوطنين المسيحيين، ونخبة مسلمة ضئيلة، وعلى القوات المسلحة الخاصة. وساعدت هذه العمليات على ظهور «أبو سياف» وحركة التمرد المسلحة في ميندناو. أما الحملة العسكرية التي شنتها الحكومة عام 2000 ضد الجبهة الإسلامية لتحرير مورو (في ميندناو والجزر

المجاورة) فقد اتسمت بالوحشية والقسوة وساعدت المتمردين على اكتساب مزيد من الدعم والتأييد.

في هذا السياق، منحت أحداث الحادي عشر من سبتمبر الفليبين فرصة لضمان المعونة المباشرة من الولايات المتحدة للسيطرة على ميندناو. وفي أوائل عام 2002، شاركت طليعة مكونة من 660 من الجنود الأمريكيين في المعارك ـ مما شكل انتهاكا سافرا للدستور الفليبيني[248]. وفي شباط/ فبراير 2003، أعلنت إدارة بوش أن قوة إضافية قوامها 3000 جندي ستنضم إلى هذه الطليعة[249]. لكن التدخل العسكري الأمريكي أدى إلى توحيد مسلمي ميندناو في معارضته[250]. وفي الحقيقة، اكتسب أبو سياف دعما كبيرا من قبل السكان المحليين[251]، ولربما يساعد التورط الأمريكي المتشددين الإسلاميين على ارتداء العباءة القومية أيضا[252].

في حين يشكل المسلمون أقلية ضئيلة في الفليبين، إلا أنهم أغلبية ساحقة في إندونيسيا وماليزيا. وهذا يعني أن الحكومتين الإندونيسية والماليزية بحاجة للبقاء على مسافة تفصلهما عن السياسة الخارجية الأمريكية. وحتى في هذه الحالة، وجدت إندونيسيا في «الحرب على الإرهاب» أداة مفيدة تستخدمها ضد الانفصاليين المسلمين في اتشيه واريان جايا[253]. ويبدو أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر زودت الحكومة بالجرأة لشن هجوم عسكري كبير ضد المتمردين في اتشيه في أيار/ مايو 2003[254].

في أوزبكستان، أدى ارتباط القمع بالإجراءات الصارمة ضد الإرهاب إلى تنامي التطرف. فقد ظل استخدام الشرطة لأساليب التعذيب أمرا روتينيا، اعترفت به وزارة الخارجية الأمريكية. أما السفير البريطاني في أوزبكستان، كريغ موراي، فقد قال: «سوف يوجد القمع الشديد، بالإضافة إلى عدم المساواة في توزيع الثروة وغياب الإصلاح، الأصولية الإسلامية التي يحاول النظام كبتها»[255]. كما استخدم

التعذيب لتوفير المعلومات (المضللة والزائفة كلية تقريبا) لوكالة المخابرات المركزية (CIA) وجهاز الاستخبارات البريطاني (MI6) معلومات تربط عناصر من المعارضة الأوزبكية مع الإرهاب الإسلامي و«القاعدة»[256].

تظهر باكستان أيضا بعض الميول المتطرفة نتيجة «الحرب على الإرهاب». وفي حين تمت مهاجمة العراق على أساس أسلحة الدمار الشامل التي لم يكن يمتلكها، فإن باكستان تمتلك بالفعل قنبلة نووية ــ وهددت «الحرب على الإرهاب» بقيادة الولايات المتحدة بوضع هذا السلاح في أيدي المتطرفين الدينيين. فقد أعطت استجابة بوش / بلير للحادي عشر من سبتمبر دفعة قوية للإحياء الديني في باكستان. ذكر أحد مراسلي صحيفة «الغارديان» في تقرير كتبه في أيار/ مايو 2002 ما يلي:

> في الأشهر التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر، اكتسحت موجة من الانبعاث الإسلامي باكستان. فمشاعر الغضب على السياسة الخارجية الأمريكية متجذرة وشاملة. وبالنسبة للكثيرين، بدأت القصة مع الحملة التي قادتها الولايات المتحدة ضد الطالبان في أفغانستان، واعتراف واشنطن ولندن في الأشهر الآتية بنكث وعودهما بإعادة إعمار البلد الذي قصفته قواتهما بالقنابل. كما تأججت مشاعر الغضب بسبب الهجمات السافرة التي تشنها عناصر مكتب التحقيقات الفيدرالي عبر الحدود الباكستانية بحثا عن المشتبه بانتمائهم لـ«القاعدة»، وبسبب الحرب في العراق (وهنا يصبح الغضب محتوما وشاملا). وفي نظر الباكستانيين، تستهدف السياسة الخارجية الأمريكية الدين الإسلامي. فهل ستكون باكستان الهدف القادم؟ إنه سؤال على كل شفة ولسان. وفجأة، لم تعد الأحزاب الإسلامية على هامش المجتمع، لكنها تركب

منتصرة موجة جديدة من الشعور بالمرارة والإحباط على الصعيد الوطني[257].

تراجعت شعبية الرئيس الباكستاني برويز مشرف حين أيد الهجوم على أفغانستان، على الأقل لأن البشتون في أفغانستان شهدوا سقوط سلطة أبناء عمومتهم البشتون في أفغانستان[258]. هذا التراجع في الشعبية كان شديدا على وجه الخصوص في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية. تلاحظ ايزابيل هيلتون أنه:

في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، اعتبر تأييد مشرف للولايات المتحدة بمثابة خيانة، ولا شيء يمكن أن يغير الاعتقاد الراسخ بأن الحرب الأفغانية هي حرب ضد الإسلام.. على الأرض، في المقاطعة الحدودية وفي جنوب أفغانستان، تستمر المواجهات المسلحة بين المقاتلين البشتون على جانبي الحدود والقوات التي تقودها الولايات المتحدة التي مازالت تحاول إخماد ما تصفه بمقاومة «القاعدة» وطالبان[259].

تمكنت الأحزاب الدينية المحافظة من السيطرة لا على المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية فقط؛ بل على بلوشستان، وهي مقاطعة أخرى فر إليها من أفغانستان العديد من ناشطي ومقاتلي الطالبان و«القاعدة»[260].

ملاحظات ختامية

«الحرب على الإرهاب» لم تفرز نتائج عكسية فقط؛ بل شتتت الانتباه عن سلسلة من القضايا التي كان يجب التصدي لها لو أردنا تقليص خطر الإرهاب إلى الحد الأقصى. ويعود جزء من السبب في ذلك إلى إهمال من جانب مسؤولي الأمن الوطني في الولايات المتحدة. وبهذا المعنى، فهو جزء من اضطراب وظيفي وعجز في الانتباه (قال جورج بوش في أول مناظرة له مع جون كيري سبقت إعادة انتخابه: «إن أفضل طريقة لحماية وطننا هي البقاء في موقع الهجوم»). جزء آخر من عجز

وقصور الانتباه تمثل في السماح لابن لادن بالفرار وإهمال إعادة إعمار أفغانستان، بينما جرى التركيز على الهجوم المبيت على العراق (انظر الفصل الثالث)[261]

وإلى جانب تركيز بؤرة الاهتمام على العراق، تبدى إهمال خطير لمسألة انتشار الأسلحة النووية. فقد ذُكر الحافز الغريب لبرامج الأسلحة النووية السرية الذي أوجده الهجوم على العراق. وعلى أية حال، زاد الوضع سوءا نتيجة حماسة الولايات المتحدة الجديدة لاستخدام ما يسمى بـ«القنابل النووية المصغرة» (المصممة لمهاجمة الأسلحة النووية أو الكيماوية أو البيولوجية المخبأة تحت الأرض)، إضافة إلى رغبة الولايات المتحدة وبريطانيا المعلنة في المبادرة إلى «الاستخدام الأول» أو الضربة النووية الأولى[262]. وخلافا لما كانت عليه الحال في الحرب الباردة، فإن وزارة الدفاع الأمريكية تفكر الآن بـ«الاستخدام الأول» للأسلحة النووية حتى ضد البلدان التي لا تملك أسلحة نووية[263]. «الحرب على الإرهاب» تشتت الانتباه أيضا عن الحاجة إلى تأمين المواد الانشطارية الموجودة حاليا. يقول بيتر سينغر:

> لربما يكون الإجراء الأشد تأثيرا وفاعلية الذي يمكن اتخاذه لمنع الإرهابيين من امتلاك أسلحة نووية هو ضمان تحويل المواد الانشطارية الناتجة إما عن برامج الأسلحة، كتلك الموجودة في روسيا وباكستان، أو برامج الطاقة النووية، إلى مواد غير مؤذية أو تخزينها وحمايتها بشكل آمن[264].

ومع ذلك حاولت إدارة بوش أولا إلغاء هذه البرامج في بلدان الاتحاد السوفييتي السابق، ثم قلصت حجم التمويل المخصص للعملية بصورة حادة[265]. ولربما تمتلك روسيا كمية تقدر بألف طن متري من اليورانيوم أو البلوتونيوم الصالحة لصنع الأسلحة النووية[266]. وثلاثة أرباع توريداتها ليست آمنة بالشكل المناسب[267]. ولاحظ ريتشارد نورتون ـ تايلر أن في روسيا:

أكثر من عشرين ألفا من الرؤوس النووية مخزنة في مائة وعشرين موقعا منفصلا. وتحتوي قذيفة مدفعية واحدة من غاز الأعصاب موضوعة في حقيبة يد صغيرة ما يكفي من الجرعات القاتلة لإبادة حوالي 100 ألف شخص. الولايات المتحدة تتردد في تمويل برامج تأمين المخازن الروسية بينما تنفق المليارات لإرسال عشرات الألوف من الجنود إلى الخليج، بدعم بريطاني، لإسقاط ديكتاتور لا يشكل تهديدا لا للأمن الأمريكي ولا البريطاني[268].

هنالك نقطة أخيرة تستحق الذكر: إن الغضب الناجم عن «الحرب على الإرهاب» قد يغذي الإرهاب لدى الأمريكيين أنفسهم (خصوصا الجنود). فالدور المفتاحي في أسوأ ثاني هجوم على الولايات المتحدة، أي تفجيرات اوكلاهوما عام 1995، لعبه جندي سابق شارك في حرب الخليج عام 1991 وشاهد فظائع قتل المدنيين خلالها. ويعلق غور فيدال قائلا: «في نهاية الحرب [عام 1991]، وهي حرب شعبية جدا، عرف مكفي [منفذ تفجيرات اوكلاهوما] أنه لم يحب ذبح الأبرياء. بصق على الرمال حين راودته فكرة إجباره على إلحاق الأذى بأولئك الذين لا يكرهونه مثلما لا يكرههم»[269]. للوهلة الأولى، يصعب مساواة ذلك مع حقيقة أن مكفي قتل فيما بعد عددا كبيرا من الأبرياء. لكن تجربة حرب الخليج ساعدت فعلا على ما يبدو في دفع مكفي نحو سبيل غريب وشاذ وعنيف. فقد شجعت اعتقادا بأن حكومة الولايات المتحدة كانت تشن الحرب على المدنيين (وهو رأي عززه فيما بعد موت أعضاء الجماعة السرية في واكو بولاية تكساس عام 1993، بعد أن هاجمهم العملاء الاتحاديون ـ المأساة التي سافر مكفي لمشاهدة فصولها). ولا يجب التقليل من أهمية وحجم الغضب الذي شعر به العديد من الجنود الأمريكيين على الأسلوب الذي استخدم لتضليلهم ودفعهم إلى المشاركة في الحرب على العراق[270]. فالعنف يولد العنف: وغالبا ما لا نعرف كيف إلا فيما بعد.

إذا أفرزت الحرب على الإرهاب هذا القدر من النتائج العكسية، فكيف إذن سنفسر ديمومة وجاذبية مثل هذه الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية؟ سوف يتطرق الفصل الثالث إلى عوامل المصلحة الذاتية، ويعاين على نحو خاص «أنظمة الحرب». سيعتبر بعضهم أن التفسيرات المؤسسة على المصلحة الذاتية أقل معقولية مما دعي بنظرية «الطبخة»: فكرة أننا في أيدي عصبة من الحمقى ـ يقودها «أبله على التل» ـ ترتكب سلسلة من الأخطاء الفادحة الشنيعة. الاحتمال الثاني ليس مستبعدا. لكن من المهم استقصاء الوظائف النفسية للتكتيكات الفاشلة، وكيف جرت قولبة التفكير السحري الكامن وراءها ليبدو معقولا وجديرا بالتصديق. وهذا ما سنحاوله بدءا من الفصل الرابع.